

موضوعات سور القرآن ومحاورها
دراسة مقارنة بين سيد قطب وابن عاشور

Topics and themes of the surahs of the Qur'an
A comparative study between Sayyid Qutb and Ibn Ashour

د. عمران عزت بخيت¹، أ. محمد صبحي عوده²

¹جامعة النجاح الوطنية - نابلس - فلسطين، emranizat@yahoo.com

²جامعة النجاح الوطنية - نابلس - فلسطين، m.s.odeh87@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/01/30

تاريخ الاستلام: 2021/12/25

الملخص:

يتتبع البحث توظيف اثنين من المفسرين في بيان موضوعات السور، التي من خلالها يتم سبر محور السورة الأساسي أو محاورها الرئيسية، وهما: سيد قطب وابن عاشور، وقد بين الباحثون جوانب الاتفاق والاختلاف بينهما، من خلال المنهج الاستقرائي التحليلي المقارن للآيات القرآنية، وتوصلت الدراسة إلى أنّ كلا المفسرين قد أسهما بإضافات نوعية من حيث الأسلوب والمنهج في تناول هذين الجانبين؛ إذ أبرز جانب الوحدة الموضوعية مستقلاً عن قرائنه من موضوعات التفسير، كالمناسبات وغيرها، وبذلك يكونا قد أسهما بإبراز سمات التفسير الموضوعي واستقلاله عن التفسير التحليلي.

الكلمات المفتاحية: محور السورة، موضوع السورة، السياق، القرآن الكريم، المناسبة.

Abstract :

The research follows the recruitment of two of the first two leading editors from the two main aspects of the substantive interpretation, the themes of the Qur'anic Wall, which are the minutes of the general meaning that Al-Surah aims to address, and the subject or topics of Al-Surah, through which the main axis or axes of the Al-Suwar are to be examined: Mr. Qutb and Ibn Ashour, and researchers have identified the differences and compatibility between them, and the study found that both facilitators have

* المؤلف المرسل:

contributed qualitative additions in terms of style and approach to these two aspects; They highlighted the substantive aspect of the unit, independent of its reading from such subjects of interpretation as events and others, and thus contributed to highlighting the features of substantive interpretation and its independence from analytical interpretation.

Keywords: the focus of the surah, the topic of the surah, the context, The Holy Quran, the occasion.

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله الرحمة المهداة محمد وعلى آله الأخيار وصبحة الأبرار، أما بعد:

فإن موضوعات سور القرآن الكريم تعدّ من أهمّ جوانب الإعجاز القرآني، فيها يتّضح توكيف الوحي وكماله، وبها تتجلي مقاصده، لكنّ هذا الجانب الذي يكشف عن ملامح السورة على وجه الإجمال لم يلقَ كامل اهتمام المفسرين القدماء، وإن ظهرت تجلياته في بعض تفاسيرهم، ولعلّ أبرز من كتب في هذا الموضوع من المتأخرين علمين هما: سيّد قطب في تفسيره "في ظلال القرآن"، والطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير" في تفسيرهما، وهو ما سيعرضه الباحثون في هذه الدراسة.

مشكلة البحث: يهدف البحث إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما الكيفية التي استعرض بها سيّد قطب محاور السور القرآنية وموضوعاتها؟
2. كيف استعرض الطاهر ابن عاشور محاور السور القرآنية وموضوعاتها؟
3. ما أوجه الاختلاف والتشابه بين سيّد قطب وابن عاشور في تناول محاور السور وموضوعاتها؟
4. ما المفاهيم التي استعملها كلا المفسرين في استعراض محاور السور وموضوعاتها؟

أهمية البحث: تكمن أهمية البحث في نقاط منها:

1. أنّها تسعى إلى بيان المفاهيم التي استعملها العلماء عند الإشارة إلى الوحدة الموضوعية وما تعلق بها.
2. أنّها تبحث في الفروقات الظاهرة في تناول أجزاء الوحدة الموضوعية بين علمين من المفسرين سبقا غيرهما إلى إبرازها منفصلة عن مجريات تفسير المعاني.

الدراسات السابقة: على الرغم من زخم الدراسات التي تناولت تفسير ظلال القرآن وكذا تفسير التحرير والتنوير إلا أنّ الباحثين لم يجدوا في حدود علمهم وما بين أيديهم دراسة مستقلة جمعت المفسرين في دراسة مستقلة تتناول جانب عنايتهما بموضوعات السور ومحاورها.

تمهيد:

موضوعات السور ومقاصدها موضوع ليس بالحديث الطارئ ولا بالقديم القارّ، وقد ظهرت ملامح الموضوعات في تفاسير المتقدمين على نحو إشارات إلى مناسبة الآيات الكريمة لسياقها، إلا أنّ الحديث عنها بشكل واضح ومستقل أو ثابت لم يكن على قدر من عناية المفسرين على وجه العموم، ولذا ينبغي النظر في اصطلاح العنوان أولاً؛ إذ ينبغي التعرّف على معنى الموضوعات إذا أردنا التعرّف على طرائق ذكرهم لها، بل ومناسبة ذكرهم لها، والفائدة التي أدركها بعض أهل العلم وفوتها آخرون.

موضوعات السور:

مجموع التكاليف والأحكام التي عقدت آيات السورة لبيانها، ومجموع المواعظ والدروس التي أظهرها القصص القرآني فيها¹.

ومن هذا المفهوم يمكن القول بأنّ موضوعات السور وبخاصة الطوال منها لا يمكن أن تكون واحدة فهي تنتقل بالعبد عند تلاوتها بين أحكام اعتقاد، وذكر للناجين، وخبر هلاك الظالمين، وبين بيان تكاليف تعبد، وتمييز حقوق، وحفظ ضروريات، ولكن هل يمكن القول بأنّ الموضوعات على اختلاف مشارب تعلّقها تؤدي غرضاً من أغراض التفسير الذي هو في حقيقته بيان مراد الله تعالى بحسب الطاقة البشرية؟

إجابة هذا التساؤل تظهر جلية في كتب المتقدمين؛ فقد أفادوا من خلال الموضوعات في نواح عدّة؛ منها بيان مناسبة السور في ترتيبها، وبيان إعجاز القرآن بالواحدة من سوره عند إيجاد المقصد الأصيل الذي ترسمه السورة، كما أنّها ببيان المناسبة قد تكون مرجّحة لبعض ما يستشكل، وهذا كلّ لا يتمّ إلاّ بمعرفة محور السورة، أو مقصدها الأساس الذي تدور عليه دوائر معانيها، وتلج فيه خواصّ مكنوناتها، فالموضوع وإن تبادر للذهن بمجرد قراءة التراكيب إلاّ أنّه يحمل جزء معنى خفي لا يظهر دون جمعه مع غيره من موضوعات السورة، ومن ثمّ فإنّ الرابط الخفي بين الموضوعات، وهو المناسبة هو ما يظهر مقصد السورة العام، وهذا الجانب يمكن ترتيبه على النحو الآتي: موضوعات فمنااسبة فمحور "مقصد"، يقول الشاطبي: ((فاعتبار جهة النظم مثلاً في السورة لا تتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالإقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أن الإقتصار على بعض الآلية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها))².

¹ لم نجد بين أيدينا تعريفاً لا بالمفهوم ولا بالحدّ يمكننا الاعتماد عليه لبناء الفرق بين المقصد والموضوع.

² الموافقات لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن

عفان، ط: 1، ت ط: 1417هـ/ 1997م: (4/ 268)

وقد يختلف العلماء في الأخيرين إثباتاً ونفيّاً، ولكن لا يسعهم المشاحة في الأول وهو الموضوعات؛ لذلك فحسن بيان موضوعات السورة هو الأساس الذي يصل بالمفسر إلى إدراك دقائق المعنى ولطيف المراد، ولعلّ أبرز الكتب التي اعتنت بموضوعات السور قديماً وإن كان إبرازها للموضوعات في سبيل بيان المقصد من السورة (كتاب مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور)، فهو ينظر في المقصد الأساس بواسطة موضوعات السورة فيقول صاحب الكتاب إبراهيم البقاعي في بيان مقصد سورة البقرة: ((والمقصود من هذه السورة: إقامة الدليل على أنّ الكتاب هدى لِيُتَّبَعَ في كل حال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه: الإيمان بالآخرة، ومداره: الإيمان بالبعث الذي أعريت عنه قصة البقرة، التي مدارها الإيمان بالغيب، فلذلك سميت بها السورة، وكانت بذلك أحق من قصة إبراهيم عليه السلام؛ لأنّها في نوع البشر، ومما تقدم في قصة بني إسرائيل من الإحياء بعد الإماتة بالصعق وكذا ما شاكلها، لأن الإحياء في قصة البقرة عن سبب ضعيف في الظاهر، بمباشرة من كان من آحاد الناس فهي أدل على القدرة)).³

وقد سبقه إلى ذلك ابن الزبير الغرناطي في كتاب البرهان في تناسب سور القرآن حيث بنى على موضوعات السور المناسبة بينها في الترتيب قال في بيان سورة البقرة: ((لما قال العبد بتوفيق ربه "اهدنا الصراط المستقيم" قيل له: ﴿ذَلِكَ الصِّرَاطُ الَّذِي فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، هو مطلوبك وفيه أربك، وهو الصراط المستقيم ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، القائلين اهدنا الصراط المستقيم والخائفين من حال الفريقين المغضوب عليهم ولا الضالين، فاتخذوا وقاية من العذاب خوف ربهم وتقواه بامتنال أمره ونهيه، ثم أشير من الأعمال إلى ما يستحق سائرهما من قبيلي البدنيات والماليات بيانا للصراط المستقيم ف قيل في وصف المتقين أنهم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 3]⁴ وهذه هي أبرز ملامح النظر في الموضوعات، والمحل لا يسع التفصيل.

أمّا سيّد قطب وابن عاشور فقد اختلف طرحهما لموضوعات السور، فأفرد كلّ منهما لكلّ سورة جلّ موضوعاتها إن لم يكن كلّها، وبذلك اتفقا في أصل الطرح، وإن اختلفا في منهج عرضها.

³ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، المسمى "المقصد الأسمى في مطابقة كلّ سورة للمسمى" لإبراهيم بن عمر بن حسن

الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، دار النشر: مكتبة المعارف، الرياض، ط: بلا، ت ط: 1408 هـ = 1987 م، (2/ 9)

⁴ البرهان في تناسب سور القرآن لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، تح: محمد شعباني، دار النشر: وزارة الأوقاف

والشؤون الإسلامية، المغرب، ط: بلا، ت ط: 1410 هـ = 1990 م، (ص/ 190)

المبحث الأول: سيد قطب مفسراً:

المطلب الأول: مولده ونشأته وحياته:

نسبه ومولده:

سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، ولد في قرية **موشا** إحدى قرى محافظة أسيوط، في: 9 أكتوبر 1906م، والده أحد المرموقين في قريته، وأحد أعضاء الحزب الوطني، ووالدته من عائلة تهتم بالتعليم⁵.

حياته العلمية:

تلقى سيد دراسته في قريته، وفي السنة الثانية الابتدائية بدأ في حفظ القرآن الكريم، وأتم حفظه في ثلاث سنوات، وفي سنة 1920م سافر إلى القاهرة، والتحق بمدرسة المعلمين الأولية "مدرسة عبد العزيز"، ونال منها شهادة الكفاءة للتعليم الأولي، ثم التحق بتجهيزية دار العلوم ونال منها شهادة البكالوريوس في الآداب، وخلال عمله في وزارة المعارف حصل على بعثة للولايات المتحدة بتاريخ: 3 نوفمبر 1948 م للتخصص في التربية وأصول المناهج⁶.

حياته العملية:

بدأ سيد قطب حياته العملية باكراً قبل إنهاء مرحلة التعليم الجامعي التي كانت أعباء تكاليفها سبباً رئيساً في عمله مدرساً ابتدائياً، ثم عيّن موظفاً بعد تخرجه من كلية العلوم سنة 1933م، وبتاريخ: 1/ 3/ 1940م انتقل إلى مراقبة الثقافة العامة بوزارة المعارف للعمل كمحرر عربي فيها، ثم ندب منها إلى إدارة الترجمة والإحصاء بتاريخ: 17/ 4/ 1940م، ثم نقل مفتشاً بالتعليم الابتدائي بتاريخ: 1/ 7/ 1944م، وكانت آراؤه سبباً في هذا النقل، ثم أعيد إلى الإدارة العامة للثقافة في أبريل 1945م.

بعد عودته من رحلة الدراسة بأمريكا في 23 من أغسطس 1950م عاد سيد قطب للعمل في وزارة المعارف بالقاهرة مراقباً مساعد بمكتب وزير المعارف، ثم نُقل إلى منطقة القاهرة الجنوبية في 22 أكتوبر 1951 م ثم أعيد مراقباً مساعد بالبحوث الفنية والمشروعات في السابع من مايو 1952 م والذي قدّم استقالته وهو شاغل له في أكتوبر 1952م، والتي تمت الموافقة عليها في 13 يناير 1954 م⁷.

⁵ سيد قطب حياته وأدبه لعبد الباقي محمد حسين، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط: 1، ت ط: 1986 = 1406 هـ. ينظر: (ص/ 17 _ 18)

⁶ ينظر، المصدر السابق: (ص/ 22 _ 24 ، 28 ، 40)

⁷ ينظر، المصدر السابق: 43.

فكره ومنهجه:

عرف سيد قطب بانتمائه للإخوان المسلمين، ولكنّ الخفي في حياته أنّه تدرّج في بحثه عن الفكر والانتماء فانضمّ سيد قطب لحزب الوفد باكراً، الذي كان يضم في ذلك الوقت عباس محمود العقاد كاتب الوفد الأول، وارتفعت الصلة بينه وبين العقاد إلى درجة عالية من الإعجاب؛ لما في أسلوب العقاد من قوة التفكير، والروح الجديدة الناتجة عن الاتصال بالأدب الغربي⁸.

في الوقت الذي تضعضعت فيه مكانة حزب الوفد بين الشباب كانت حركة الإخوان المسلمين قد أخذت تحلّ محلّها؛ وقد بدأت علاقته بالإخوان المسلمين تأخذ شكلاً ملموساً في سنة 1946 م عن طريق محمد حلمي المنياوي بعدما دعاه إلى الاشتراك في رئاسة تحرير مجلة "الفكر الجديد" التي كتب لها سيد قطب عدّة مقالات عن الأوضاع السياسية والاجتماعية الفاسدة، حتى صودرت الصحيفة بعد ثلاثة أشهر⁹. وأمّا انضمامه بشكل رسمي فقد تأخر حتى العام 1953 م، حيث دعي ليشترك في تشكيل الهيئة التأسيسية للجماعة، تمهيداً لتوليّه الإشراف على قسم الدعوة، وهو أحد الإدارات المركزية بالمركز العام للإخوان المسلمين بالقاهرة¹⁰.

مصنفاته تراثه العلمي:

كان سيد قطب ناقداً أدبياً قبل أن يكون مفكراً إسلامياً، ولكنّ الدور الذي لعبه في فترة حلّ جماعة الإخوان زمن عبد الناصر جعل منه رمزاً لها، وقد أسهمت رمزيته هذه في خفاء جانب الأديب الناقد من شخصية الرجل، ومن هنا يجدر ذكر أهمّ المصنفات التي كتبها خلال حياة حافلة بالأدب والفكر والدعوة إلى الإصلاح، ومن هذه المؤلفات:

أولاً: المؤلفات الأدبية

1. كتاب (كتب 2. ديوان شعر بعنوان (الشاطئ المجهول) سنة 1935م.
3. (طفل من 4. (النقد الأدبي أصوله ومناهجه) سنة 1948م تميز بالجمع بين (القرية) سنة الأصالة والمعاصرة، وفيه برزت بدايات نظريته في كتابه في ظلال 1946م.

⁸ ينظر، سيد قطب حياته وأدبه لعبد الباقي حسين: (ص/ 27 _ 29، 33 _ 35)

⁹ ينظر، المصدر السابق: 36.

¹⁰ ينظر، المصدر السابق: (43 _ 46)

ثانياً: مؤلفات إسلامية:

1. (التصوير الفني في القرآن) 1945 م وهو في أصله مقالة نشرت في مجلة المقتطف 1939م
2. (مشاهد القيامة في القرآن) 1947 م وهو دراسة جمالية بلاغية جديدة في الإعجاز البياني للقرآن.
3. (العدالة الاجتماعية في الإسلام) 1949 م وهو في أصله مقال في مجلة الشؤون الاجتماعية بعنوان العدالة الاجتماعية بمنظور إسلامي 1944م¹¹.
4. (كتاب في ظلال القرآن) 1951 م، وأنهى تنقيحه بعد الطبع وهو في سجنه.
5. (السلام العالمي والإسلام) 1951 م. 6. (هذا الدين) كتبه في السجن.
7. (معالم في الطريق).
8. (المستقبل لهذا الدين) كتبه في السجن¹².

ثالثاً: مؤلفات لم تنشر:

1. (أمريكا التي رأيت).
2. (أمريكا التي رأيت).
3. (النماذج الإنسانية في القرآن).
4. (النماذج الإنسانية في القرآن).
5. (المنطق الوجداني في القرآن)¹³.

محنته ووفاته:

بدأت محنة سيد قطب بمناصبه عبد الناصر العداء للإخوان، والذي ظهر للعلن في 13 يناير 1954م بقرار يقضي بحل الجماعة، ثم كانت حادثة المنشية التي اتهم بها الإخوان المسلمون، واعتقل على إثرها نحو ألف عضو في الجماعة كان من بينهم سيد قطب، ووجه لهم الاتهام بمحاولة قلب نظام الحكم، سجن على إثرها سيد قطب خمسة عشر عاماً¹⁴، وتم الإفراج عنه في مايو 1964م بعفو صحي¹⁵.

¹¹ ينظر: سيد قطب حياته وأدبه لعبد الباقي حسين: (34 _ 39)

¹² ينظر: المصدر السابق: (ص/ 31 _ 39، 47)

¹³ ينظر: المصدر السابق: (34، 42)

¹⁴ منهم: محمود عبد اللطيف ويوسف طلعت وهنداوي دوير، وإبراهيم الطيب، وعبد القادر عودة، والشيخ محمد فرغلي وحسن الهضيبي، حكم على جميعهم بالإعدام نفذ الحكم فيهم جميعاً عدا الهضيبي الذي خفف إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.

¹⁵ ينظر، سيد قطب حياته وأدبه لعبد الباقي حسين: (47 _ 48)

لم يمضِ وقت طويل حتى عاد سيّد قطب إلى السجن فاعتقل بتاريخ 9 أغسطس 1965م بعد أن قدّم رسالة احتجاج إلى المباحث العامة على إثر اعتقال أخيه محمد في 30 يوليو، وعلى إثر اعتقاله قدّم للمحاكمة، وحكم عليه بالإعدام مع سبعة من رفاقه.

نُفِّد فيه رحمه الله حكم الإعدام في فجر الاثنين 13 جمادي الأولى سنة 1386هـ الموافق 29 أغسطس 1966م، توفي تاركاً خلفه إرثاً من الفكر جعله يمثل القيادة الروحية والفكرية للإخوان المسلمين بل صارت أفكاره التي بثها كتبه دستور الجماعة ومرتكزات منهجها¹⁶.

المطلب الثاني: منهج سيّد قطب وأصول التفسير في تفسيره في ظلال القرآن:

لما كان سيّد قطب يهدف من خلال تفسيره الظلال إلى بيان الأغراض الأساسية التي يخدمها القرآن الكريم على وجه من البلاغة والتصور الحركي لهذه الأهداف والأغراض فقد كان تفسيره للآيات على نحو يختلف عن غيره، وقد استعان على ذلك بالمعقول والمنقول وفق مسار يختلف توظيفه عن سابقه، فلم يكن هدفه مواطن الخلاف في تفسير الآيات بالقدر الذي كان يسعى فيه إلى إيجاد الروح التي تسكن نصّ القرآن الكريم، وتظلل بفيئها سلوك الفرد، فتهذب وتصفقه في مواجهة ما يعترضه من مواقف وصعوبات الحياة، وفيما يلي ذكر نقاط الارتكاز التي اعتمدها قطب في تفسيره وهي التي تتشكّل منهجه¹⁷.

أولاً: منهجه في تفسير السور إجمالاً:

يبدأ سيّد قطب تفسيره ببيان مجملٍ عن السورة يبرز خلاله كما يقول شخصيتها وجلّ ما يذكره في هذا البيان يخدم غرضه في بيان موضوعها والمقصد الذي تعالجه آياتها.

1. **بيان اسم السورة ونوعها:** يذكر سيّد قطب في مستهل تفسيره اسم السورة المتفق عليه دون تعرّض لما ورد في تسميتها عند العلماء، ذاكراً عدد آياتها دون تعرض لاختلاف مصاحف الأمصار في عدّها؛ وهو في ذلك قد التزم ما أراد من عدم البحث عن الخلاف لأجل ذكره ما لم يخدم موضوعاً.

2. **الوحدة الموضوعية:** يبدأ سيّد قطب تفسيره للسورة ببيان موضوعاتها على وجه التفصيل، ثمّ يربطها بمحورها العام يقول: ((إِنَّ كُلَّ سُورَةٍ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين... إنّها كلها تتجمع على الموضوع والغاية، ثم تأخذ

¹⁶ ينظر، سيد قطب حياته وأدبه لعبد الباقي حسين: 48.

¹⁷ التزمت في البحث ببيان أهم ما تميز به منهجه وتركت ذكر ما يتفرع عن بعضه ففي ذلك إطالة لا يلزم المقام من سردها، فقد ألقت في منهجيته كتباً وأعدت رسائل، منها أطروحة دكتورة للدكتور صلاح الخالدي، والتي أخرجها في ثلاثة كتب، وأطروحة دكتورة للدكتور عدنان زرزور، وغيرهما كثير.

بعد ذلك سماتها المستقلة، وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع وتحقيق هذه الغاية¹⁸.

3. بيان المناسبات بين الآي: قسّم سيد قطب كلّ سورة إلى وحدات موضوعية مستقلة بعد ذكره لموضوعها أو موضوعاتها على وجه الخصوص، فيسرد الآيات التي تتناول الموضوع وتظهر المعنى الذي يربّجه، متكلّماً في بيان ذلك على السياق بنوعيه، ومن ثمّ المناسبة بين الآيات، يقول قطب في ذلك: ((ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلّ موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو، ولها إيقاع موسيقي خاص إذا تغير في ثنايا السياق فإنّما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً))¹⁹.

ثانياً: أصول التفسير التي اعتمدها سيد قطب:

أولاً: الأصول والمآخذ النقلية:

1. التفسير بالقرآن: ويقصد به تتبع المعنى المراد بيانه في آيات الكتاب ذاتها فالقرآن الكريم بعضه دالٌّ على بعض، تقييداً أو تخصيصاً أو تفصيلاً، وقراءاته المتواترة في الآية الواحدة تعدّ كلّ واحدة منها آية مستقلة، وقد اعتمد سيّد قطب على تفسير النّص القرآني بنظائره في موضوعه، فكان يعمد إلى جمع الآيات التي تناولت موضوع الآية فيعملها جميعها في إظهار وتصوير المعنى²⁰، ومن أمثلة ذلك، قوله عند تفسيره لمعنى الروبوبة في قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْمَكِينِ﴾ [الفاتحة: 2]، يجعل التسليم بالروبوابة المطلقة هي ما يسمو به المؤمن في إيمانه بالله سبحانه، ويعتبر الروبوابة المطلقة هي الحدّ الفاصل بين التوحيد التام الكامل وبين الكفر ونكران تعدّد إله واحد، ثمّ يذكر أنّ من تعدّدت آلهتهم غالبهم يقرون بأنّ الله الواحد موجد للكون، وأنّ بعض أهل الكتاب قد نصّبوا علماء شريعتهم على شرعه تعالى فرفعوهم إلى حدّ التألّيه²¹، ونصب لقوله هذا جملة من الآيات التي تبيّن وتظهر هذا المعنى:

¹⁸ في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط: 17، ت ط: 1412 هـ. (3/ 1243)

¹⁹ المصدر السابق: (1/ 28)

²⁰ تفسير القرآن بالقرآن يدخل فيه تفسير الكلمة بنظائرها في السياقات المشابهة، فإن كان بواسطة القراءات كان البيان لا عن طريق "دلالة التركيب" وإنّما عن طريق دلالة المفردة، لا يهتم سيّد قطب للقراءات ونادراً ما يذكرها وأندر منه يستخدم معانيها وبخاصة في الترجيح بين المعاني المحتملة. ينظر: مقدمة في أصول التفسير، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحنبلي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط: بلا، ت ط: 1490 هـ = 1980م، (39)، والبرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، ط: 1، ت ط: 1376 هـ =

1957م، (2/ 175)

²¹ ينظر، في ظلال القرآن: (1/ 23)

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (الزمر: 3)، ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: 31).

وبين من خلال ذلك أن فوضى الاعتقاد السائدة في عصر الرسالة، فجعل إطلاق الربوبية في هذه السورة وشمول ذكر العالمين في إطلاقها؛ يجعل انتظام الإيمان لا يتحقق إلا بتوحيد الإله، إذ مردّ العوالم في الربوبية رب واحد؛ لذلك وجب أن يكون مردّ العبادة له وحده سبحانه، فيقول: ((فإطلاق الربوبية في هذه السورة، وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعاً، هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة، لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد... ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم إلى رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة))²².

2. التفسير بالسنة المطهرة: السنة المطهرة بأنواعها مفسرة للكتاب؛ إذ فيها بيان للمجمل، وتخصيص للعام، وإيضاح للمبهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (النحل: 44)، وهي أول المأثور الذي يلتسمه المفسر، واختلافهم في ضوابط أسانيدها كما اختلافهم في مراد ألفاظها وبساط صدور الأثر عنه ﷺ هو مردّ اختلافهم في أخذ بعضها وترك الآخر عند توافرها في بيان النص، وذلك وفق مرجحاتهم لبعض نصوصها على بعضها الآخر²³، وقد احتكم سيد قطب إلى الآثار في تفسير القرآن الكريم، فكان في بعض المواضع يذكرها معتمداً عليها لدلالاتها دون سرّد للمعنى على إجماله، مكتفياً بالتعقيب على المعنى العام، فيذكر جملة الأحاديث الصحيحة الواردة في مناسبة النص القرآني، أو سبب نزوله، وقد يبدأ بتفسير الآية مستدلاً على ما رجّح من المعنى بالأثر، وفيما مثال ذلك: يذكر قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: 154) أن الموت هو السلبية والجمود، وأن صفة الحياة تلزم منها الفاعلية والامتداد والنمو؛ لذلك فالشهداء وإن كانوا أمواتاً في الحسّ والشعور فهم يؤثرون في فاعلية الفكرة واستمرارها، ممّا يجعلهم دافعاً للآخرين، وبهذا الاعتبار فهم في حكم الأحياء، وهم أحياء عند ربهم بكهّن لا نعلمه، ثم ما لبث أن استدلّ بالسنة المطهرة على خصوصية هذا الصنف من البشر الذي رزقه الله الحياة عند موته.

²² في ظلال القرآن: (1/ 23)

²³ من الراجح عند العلماء أن الرسول ﷺ لم يفسر القرآن كاملاً وإنما فسر منه ما احتيج إليه وما خفي عن أفهام الصحابة رضوان الله عليهم، ولكن من يطالع التفسير يجد أن جلّ الآيات قد نظر في تفسيرها بنصوص السنة بل ورجحت معاني على أخرى وهو ليس باب التفسير نصّاً وإنما من باب تطبيق أحكام أو بيان حال عام، أو استقراء سنة الرسول ﷺ في ذات موضوع الآية. ينظر: الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: 2، ت: ط: 1384هـ = 1964م، (1/ 31، 37 _ 39)؛ وقد فصل في ذلك خالد السبت في كتابه قواعد التفسير، على هذا المعنى في أربعة أقسام أتيت فيما ذكرت على مضمونها، ينظر، قواعد التفسير للسبت: (1/ 130 _ 157)

وقد بدأ بذكر إكرام الله لهم وسرد طائفة من الآثار في ذلك ومنها: ((إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك إطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى -لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جل جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون))²⁴.

((عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد، ويتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة))²⁵.

ثم بدأ الحديث عن صفة عمل هؤلاء الشهداء بأنهم أخلصوا النية لله لا يبتغون بقتالهم شيئاً من عرض الدنيا وسرد في ذلك طائفة من الآثار منها: ((عن أبي موسى رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))²⁶.

((وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا؟ فقال: لا أجر له، فأعاد عليه ثلاثاً، كل ذلك يقول: لا أجر له))²⁷، ثم ذكر كراهة الرسول الله ﷺ الاعتزاز بالجهاد في ما عدا سبيل الله، وذكر في ذلك آثراً عديدة، منها: ((عن عبد الرحمن بن أبي عقبة عن أبيه "وكان مولى من أهل فارس"، قال: شهدت مع النبي ﷺ أحداً، فضربت رجلاً من المشركين، فقلت: خذها وأنا الغلام الفارسي، فالتفت إلي النبي ﷺ فقال: هلا قلت: وأنا الغلام الأنصاري، إن ابن أخت القوم منهم، وإن مولى القوم منهم))²⁸.

²⁴ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: بلا. ينظر: كتاب، الإمارة، باب، بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، حديث رقم: (1887)، (3/ 1502)، وبعض لفظه على المعنى.

²⁵ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: 1، ت ط: 1422هـ، كتاب، الجهاد والسير، باب: تمنى المجاهد أن يرجع للدنيا، حديث رقم: (2817)، (4/ 22)؛ وصحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب، فضل الشهادة في سبيل الله، حديث رقم: (1877)، (3/ 1498).

²⁶ صحيح البخاري: كتاب، العلم، باب، من سأل وهو قائم عالماً جالساً، حديث رقم: (123)، (1/ 36)؛ وكتاب، الجهاد والسير، باب، من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم: (2810)، (4/ 20)، وصحيح مسلم: كتاب، الإمارة، باب، من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم: (1904)، (3/ 1513) واللفظ لمسلم.

²⁷ سنن أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط: بلا، ت ط: بلا، كتاب، العلم، باب، طلب العلم لغير الله تعالى، حديث رقم: (3664)، (3/ 323) وبعض لفظه على المعنى.

²⁸ سنن أبي داود: باب، في العصبية، حديث رقم: 5123، (4/ 332) وقوله: إن ابن أخت القوم منهم، وإن مولى القوم منهم زيادة.

فقد كره له ﷺ أن يفخر بصفة غير صفة النصر للنبي ﷺ، وأن يحارب تحت شارة إلا شارة النصر لهذا الدين، وهذا هو الجهاد، وفيه وحده تكون الشهادة، وتكون الحياة للشهداء²⁹.

ومن كل ما تقدم يظهر التزام سيد قطب رحمه الله في تفسيره لآيات القرآن بالأحاديث الشريفة ما كان منها صحيحاً أو من درجة الصحيح، وكل ما ورد عنه كان من كتب الصحاح.

3. أسباب النزول: أسباب النزول على قسمين بعضها ما كان صريحاً وهذا لا خلاف في الأخذ به عند ورود ما دام صحيحاً، وبعضها ما كان يحتمل أن يكون سبب نزول كما يحتمل أن يكون صورة من صور فهم السلف للآية³⁰، وقد أخذ سيد قطب بأسباب النزول الصحيحة ورجح بعض المعاني بها وبالسباق الذي جعله ضابطاً في الحكم يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 189].

فذكر أن الارتباط بين شطري الآية هو المناسبة بين أن الأهل هي مواقيت للناس والحج، وبين عادة جاهلية خاصة بالحج هي التي يشير إليها شطر الآية الثاني: في الصحيحين - بإسناده - عن البراء رضي الله عنه قال: ((كان الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت، فجاء رجل منهم فدخل من قبل بابه، فكانه عير بذلك. فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: 189]))³¹.

((ورواه أبو داود عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه. فنزلت هذه الآية))³².

ثم يعرج على ذلك مرجحاً للمعنى الذي استقر في نفسه: ((وسواء كانت هذه عادتهم في السفر بصفة عامة، أو في الحج بصفة خاصة وهو الأظهر في السياق، فقد كانوا يعتقدون أن هذا هو البر - أي الخير أو الإيمان - فجاء القرآن ليبطل هذا التصور الباطل، وهذا العمل المتكلف الذي لا يستند إلى أصل، ولا يؤدي إلى شيء، وجاء يصحح التصور الإيماني للبر فالبر هو التقوى))³³.

²⁹ ينظر، في ظلال القرآن: (1/ 144 - 145)

³⁰ محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي، خرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط: 1، ت ط: 1376 هـ = 1957 م. ينظر: (1/ 22 - 33)

³¹ صحيح البخاري: كتاب، التفسير، باب، قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، حديث رقم: 1803، (3/ 8)، وصحيح مسلم: كتاب، التفسير، 3026، (4/ 2319)

³² مسند أبي داود الطيالسي، سليمان بن داود بن الجارود، تح: محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط1، 1999 م، (2/ 90)

³³ في ظلال القرآن: (1/ 184)

4. أقوال الصحابة: أقوال الصحابة رضوان الله عليهم في تفسيرهم للقرآن الكريم تصدر عن نوعين، إما أن تكون ممّا لا يؤخذ إلاّ بقطع وغيب كالناسخ والمنسوخ، وهذا له حكم المرفوع، والآخر: ما له حكم الموقوف ممّا يرجع إلى الرأي، وفي هذا اختلف رأي العلماء فبعضهم قال: هو مجرد اجتهاد عرضة للخطأ والصواب، وقال آخرون: يجب الأخذ به فهو الأقرب للصواب فهم أهل اللسان عاينوا التنزيل، وعرفوا أحواله فلا يصار إلى قول غيرهم عنهم³⁴، لا يهمل سيد قطب أقوال الصحابة، فأفهامهم لمعاني الآيات عنده معاني أولية تحمل روح النص الكريم؛ فقد فهموا كوامنه، وعاشوا بواعثه، فهم الرهط الذين عاشوا بالقرآن حياتهم، وهو مع ذلك يرجح بين فهمهم بمرجحات منها: صحة السند الذي وصلت به أقوالهم، وكذلك انضباط هذه الأقوال والسياق ومناسبة الآيات لموضوعها، ومن ذلك يذكر سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان:16]، أقوال الصحابة في بيان المقصود من البطشة الكبرى، وقد اختلفوا في معناها وما تمثله إلى رأيين، أحدهما وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه البطشة الكبرى هي يوم بدر وقال غيره وهم: أبي بن كعب وابن عباس _ رضي الله عنهم _ هو يوم القيامة، ومرّد اختلافهم يرجع إلى اختلافهم في الدخان الوارد في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يَعْشَى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ [الدخان:11]، هل وقع الدخان المتوقع به وانقضى أم أنه لم ينقض؟ فيكون بذلك شرطاً من أشرط الساعة.

وعلى رأي ابن مسعود رضي الله عنه فإنّ الدخان قد وقع وانقضى، وقد كان عقوبة مضر لتكذيبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الله حبس عنهم المطر بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع ما أصابهم، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلاّ الدخان من شدة التعب، فأتته قريش وسألته أن يدعو الله ليكشف عنهم فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان:15]، وقد جعل ابن مسعود رضي الله عنه كشف العذاب دليلاً بل مرجحاً لكون البطشة الكبرى هي يوم بدر، فلو كان المقصود منها يوم القيامة لما تأتى كشف العذاب.

³⁴ هذه الآية لا يمكن الجمع بين تفاسير الصحابة المختلفة لها، واختلافهم ناشئ عن اختلافهم في تقديم الأدلة فقدّم بعضهم مناسبة النزول، وقدّم آخرون في بيانها نظائر لها وردت عن الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ واختلافهم في إعمال السياق لتقصي مذاهب العلماء في أقوال الصحابة. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية تج: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، ت: ط: 1411 هـ = 1991م، (4/ 166 _ 119)؛ والبرهان في علوم القرآن للزركشي: (157/2)؛ وقواعد التفسير للسبب: (1/ 158 _ 187)

بينما يكون معنى كشف العذاب محتملاً لمعنيين على رأي من قال بأن البطشة الكبرى هي عذاب يوم القيامة، الأول: أنه تعالى يقول لهم: لو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من كفر وجحود، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُورُ فِي طَغْيَنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾ [المؤمنون: 75]، والآخر: أنه تعالى مؤخر العذاب عنهم قليلاً بعد انعقاد أسبابه، من استمرارهم على طغيانهم ووصوله إليهم، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون بأشهرهم، كما لا يلزم ذلك من وصوله إليهم، ومن ذلك قوله تعالى: قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَاءَ أَمْتِنَا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾ [يونس: 98].³⁵

وقد رجَّح سيد قطب بعد ذلك قول ابن عباس _ رضي الله عنهما _ وبين مردَّ اختياره وفق سياق تصويري للأحداث سبقه بقوله: ((ونحن نختر قول ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير الدخان بأنه عند يوم القيامة، وقول ابن كثير في تفسيره. فهو تهديد له نظائره الكثيرة في القرآن الكريم، في مثل هذه المناسبة ومعناه: إنهم يشكون ويلعبون))³⁶.

ثانياً: الأصول والمآخذ العقلية:

ويشمل كل العلوم التي تحقق فهماً أظهر لآيات القرآن الكريم، أي أنه: مطلق الاجتهاد للتعرف على المعنى المراد بمقتضى قوة الشرع واللغة، فيشمل بذلك المعاني الخفية التي تظهر بإعمال العقل في سياق الآيات وهي المناسبة³⁷، ومطلق اللغة بعرض اللفظ على الحقيقة والمجاز في كلام العرب، فضلاً عن النظر في تراكيب الآيات لبيان المعاني النحوية والصور البلاغية، ولعل أبرز ما أعمله سيد قطب في تفسيره ما يلي:

1. دلالة اللفظ: يرجع في تفسيره إلى المدلول اللغوي، ولكنه لا يعمل سوى دلالة اللفظ الذي يخدم تفسير الآية، فلا يذكر المعاني التي لا علاقة لها بموضوع الآية، وضابطه في ذلك السياق، فيسعى من خلال ذلك لأن يجعل من اللفظ فيها ذا مدلول حسي يصور حركة لازمة للفظ، فكأنه يفسر اللفظ بدلالة حركية لازمة له.

³⁵ ينظر: ظلال القرآن لقطب: (5/ 3210 ، 3212) وقد أورد ابن كثير كما غيره من المفسرين لمعاني عديدة لها ولكن سيد قطب قد اقتصر على هذين القولين لترجيحهما على غيرها عنده.

³⁶ في ظلال القرآن: (5/ 3212)

³⁷ وذلك بربط الكلام السابق باللاحق فيما يعرف بوحدة السياق، وهو وإن كان في بدئه لغوياً إلا أنه يصل إلى دائرة استخدام العقل لاستظهار العلاقة وذلك موصل إلى دلالة المعاني من خلال ربط القرينة اللغوية مع قرينة الموقف والتي غالباً ما تظهر في أسباب النزول، والتفسير الإجمالي بالشبه والمثال الوارد عن الصحابة رضوان الله عليهم في ما كانت دلالاته خفية كالمشترك أو ما كان دلالة تضمن أو التزام.

فارق قطب المفسرين في كونهم يبحثون دلاليًا عن غالب الألفاظ الكريمة في الآيات، بينما يفسر قطب الآيات وفق موضوعها، والألفاظ في منهجه هي مفاتيح يختار منها ما يخدم إيضاح الصورة، فليس معنى اللفظ هو ما يسعى إلى تحقيقه، وإنما توظيفه هو الأصل عنده، يعتمد سيد قطب في تفسيره على اللغة في بيان المعنى لا من حيث الدلالة اللفظية المجردة وحدها، وإنما قد يعتمد في تفسيره على الدلالة اللازمة، ومثاله تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّارِئَ وَالصَّغِيْرَ مَنَ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62].

ذكرت الآية أصناف أهل الأديان السماوية وقرّرت أنّ المسلمين واليهود والنصارى والصابئة جميع من آمن منهم وعمل صالحاً فهو داخل في أمن الله سبحانه، إذ العبرة بحقيقة العقيدة، والأصناف عدا المسلمين ينقطع عهد الله لهم بالأمن إن لم يؤمنوا بما ثبت من أمره تعالى لهم بالإيمان بالرسالة الخاتمة، ولم يختلف العلماء في المقصودين من قوله تعالى: "الذين آمنوا" و"اليهود" و"النصارى" ولكنهم قد اختلفوا في حقيقة من يقصدون بقوله تعالى: "الصابئين" فقال بعضهم: عبدة النجوم، وقال آخرون: قوم بين اليهود والمجوس، وقيل: قوم ليس لهم نبي ولا كتاب وليس لهم عمل إلا قول لا إله إلا الله، وقالوا: هم عبدة الملائكة، وقالوا: كلّ من غير دينه فقد صاباً³⁸.

وقد رجّح قطب الرأي الأخير على اعتبار اللغة فقال: ((والصابئون: الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى "ملة إبراهيم" واعتزلوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم، فقال عنهم المشركون: إنهم صابؤوا، أي: مالوا عن دين آبائهم، كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك ومن ثم سمّوا الصابئة، وهذا القول أرجح من القول بأنهم عبدة النجوم كما جاء في بعض التفاسير))³⁹.

ولا يهمل قطب الدلالة اللغوية للمفردة ما دامت تخدم التفسير، وبخاصة إذا كان ذلك طريقاً في تصوير مشهد معنوي، ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْكَدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217]، ((والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة إذا رعت مرعى خبيثاً فانفخت ثم نفقت))⁴⁰.

³⁸ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الأملي الطبري تح: عبد الله بن عبد المحسن

التركي، دار هجر، ط: 1، ت ط: 1422 هـ = 2001 م، ينظر: (2/ 34 - 36)

³⁹ في ظلال القرآن: (1/ 75)

⁴⁰ المصدر السابق: (1/ 228)

فدّل على تطابق المدلول الحسي والمدلول المعنوي للفظ الحبوط حيث يتناسب تضخم العمل الباطل وهلاكه في النهاية، مع تضخم حجم الناقاة وهلاكها في النهاية بهذا الانتفاخ، إذ من يرتدد عن الإسلام تحت وطأة الأذى والفتنة فإن مصيره الذي قرره الله له؛ هو حبوط العمل في الدنيا والآخرة، ثم ملازمة العذاب في النار خلوداً⁴¹.

2. دلالة السياق: يعتبر السياق أحد أهم الأصول التي يعتمد عليها قطب في تفسيره الضلال، فهو يغلب السياق في ترجيحاته لأقوال السابقين، وقد يربطه بعنصر المناسبة، وهو أحياناً يذكر السياق على وجه الإجمال وقد يفصل في ذكره أحياناً أخرى، ومن أمثلة ذلك:

الصورة الأولى:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ [البقرة: 14].

عند ذكر الله سبحانه لتذبذب حال المنافقين في أقوالهم نجده سبحانه يبين أنهم في جميع أقوالهم على حالين، الأول: وهو إظهار حال الإيمان في حضرة المصطفى والمؤمنين، والآخر: في حضرة شياطينهم وقد اختلف في المقصودين على التعيين في قوله تعالى: ﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ فقد جاء عن بعضهم أنهم رؤوس الكفر وعن آخرين بأنهم رؤوس النفاق في المدينة، ويرى غيرهم بأن المقصود بالشياطين هنا اليهود، وقد اعدّ قطب السياق بقسميه المقالي والحالي يرجح أن المعنى بهذا الإطلاق هم يهود، فقال: ((وفي ثنايا هذه الحملة على المنافقين - الذين في قلوبهم مرض - نجد إشارة إلى "شَيَاطِينِهِمْ" والظاهر من سياق السورة ومن سياق الأحداث في السيرة أنها تعني اليهود، الذين تضمنت السورة حملات شديدة عليهم فيما بعد))⁴².

أولاً: السياق المقالي:

وظّف فيه آيات عديدة جاءت تصف اليهود بأنهم كانوا ينادون المسلمين العداء، ولكنهم لم يظهروا هذا العداء حتى حين، فجاءت بعض آيات سورة البقرة تصف حال اليهود مع أنبيائهم من تكذيب وعداء، ومن ثمّ موقفهم من دعوة الإسلام وإنكارهم لها، فبدأ بذكر أمر الله سبحانه لهم بالإيمان بما أنزل على محمد ﷺ ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِأَبْنَيْ تَمَنَّا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: 41].

⁴¹ ينظر: في ظلال القرآن: (1/ 228)

⁴² المصدر السابق: (1/ 31)

ثم أورد بعد ذكره لهذه الآية تحذير الله سبحانه المؤمنين من الانسياق وراء أراجيفهم، مذكراً إياهم بنقضهم عهدهم مع الله وموافقهم مع موسى - ﷺ - فقال: ((وبعد تذكيرهم طويلاً بموافقهم مع نبيهم موسى - عليه السلام - وجودهم لنعم الله عليهم، وفسوقهم عن كتابهم وشريعتهم، ونكثهم لعهد الله معهم، جاء في سياق الخطاب لتحذير المسلمين منهم))⁴³، وقوله تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَنَحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦) [البقرة: 75-76]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩) [البقرة: 89].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ وَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) [البقرة: 101].

وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (١٠٩) [البقرة: 109].

وبين أن صفات إنكار الحق ونقض العهد، والاستعلاء، جميعها من طبائع يهود وأخلاقهم، وأن القرآن الكريم وصفهم بهذه الصفات؛ لأتباعها ملازمة لهم.

ثانياً: سياق المقام:

وظف السياق الحالي أو ما يعرف بالمقام، في بيان ذلك فذكر في معرض ذلك أن الإسلام سلب اليهود مزايا كانوا قد ظفروا بها؛ لكونهم أهل كتاب، فكانت بمثابة أسباب تدفعهم إلى مناصرة المنافقين:

1. كان لليهود في يثرب مركز ممتاز بسبب أنهم أهل كتاب بين الأميين من العرب - الأوس والخزرج - ومع أن مشركي العرب لم يظهروا ميلاً لاعتناق ديانة أهل الكتاب هؤلاء، إلا أنهم كانوا يعدونهم أعلم منهم وأحكم بسبب ما لديهم من كتاب، وظهور دين جديد ودخول العرب فيه سيسلبهم هذه المكانة في النفوس.

2. تطهير الإيمان لقلوب الأوس والخزرج جعلهم يبنون ما بينهم من عداوة الجاهلية، وهذا جعل سوق تجارتهم بالسلاح وعملهم بالربا يكسد إن لم يكن ليبور.

3. صفة الحسد الموهلة في نفس يهود جعلتهم بعد صدقوا ما ادعوا من أنهم أحباب الله وأصفياه يحسدون العرب الأميين؛ لنزول الديانة الخاتمة على رجل منهم وهم يعلمون وفق ما أخبرت به كتبهم بأن دينه سيكون الخاتم وأن أتباعه يظهرون على من سواهم، وأن رسالته ناسخة لما سواها⁴⁴.

الصورة الثانية:

قد يستغني سيد قطب في تفسيره بالسياق المقامي عن المقالي وبالمقالي عن المقامي إذا ظهر المعنى من أحدهما ومن أمثلة ذلك:

أ. استغناؤه بسياق المقال في ترجيح معنى: "هبطوا مصرًا" في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْشُوكَ عَلَى نَصْرٍ عَلَى طَعَامٍ وَجِدْ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَاطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأً ثُمَّ ۖ﴾ [البقرة: 61].

اختلف العلماء في تأويل قوله تعالى: ﴿أَهَاطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأً ثُمَّ ۖ﴾ [البقرة: 61] فقال بعضهم إنه على معنى: أن ما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق الدعاء فهو موفور في أي مصر من الأمصار فاهبطوا أية مدينة فإنكم تجدون ما طلبتم فيها، أو أن تكون على معنى عودوا إلى مصر التي خرجتم منها أي: إلى ما اعتدتم وألفتم فيها من حياة الدّل والخنوع، ودعوا ما دعيتم له من استخلاف الله لكم في الأمور العظيمة، وعلى المعنى الثاني: يكون هذا من موسى - ﷺ - تأنيباً وتوبيخاً لهم.

وقد رجّح سيد قطب أن يكون المعنى هو عودوا إلى مصر التي كانوا فيها لما فيه من تذكير بحياة الدّل التي كانوا فيها، وهو في ترجيحه هذا قد استخدم السياق أصلاً في ترجيح دلالة النص على المعنى، يقول سيد قطب: ((وأنا أرجّح هذا التأويل الذي استبعده بعض المفسرين أرجّحه بسبب ما أعقبه في السياق من قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ﴾ فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم وعودتهم بغضب الله، لم يكن "من الناحية التاريخية" في هذه المرحلة من تاريخهم إنما كان فيما بعد، بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 112]، وقد وقع هذا منهم متأخراً بعد عهد موسى بأجيال. إنما عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء؛ فناسب أن يكون قول موسى لهم: ﴿أَهَاطُوا مِصْرًا﴾ هو تذكير لهم بالذل في مصر، وبالنجاة منه، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الدّل والهوان⁴⁵.

⁴⁴ ينظر، في ظلال القرآن: (1/ 31 - 32)

⁴⁵ المصدر السابق: (1/ 74 - 75)

ب. استغناؤه بسياق المقام في تفسيره للمقصود بـ " وللرجال عليهن درجة" في قوله تعالى:

﴿وَمَوْلَاهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة: 228]

فقال: ((أحسب أنها مقيدة في هذا السياق بحق الرجال في ردهن إلى عصمتهم في فترة العدة، وقد جعل هذا الحق في يد الرجل؛ لأنّه هو الذي طلق، وليس من المعقول أن يطلق هو فيعطي حق المراجعة لها هي! فتذهب إليه))⁴⁶.

المطلب الثالث: منهج سيد قطب في عرض موضوعات السور:

دأب سيد قطب في معرض تفسيره لسور القرآن على رسم صورة مجملّة للمعاني الأصلية

التي جاءت السورة لتمثلها، وهو ما يعرف بموضوعات السورة ومحاورها.

ركّز سيّد في أثناء عرضه لموضوعات السور "الوحدة الموضوعية" على مسمّيات وهي:

المحور العام ووحدة والموضوع ، وقد وظّف هذه بما يخدم غرضه في بيان شخصية السورة التي سبق الإشارة لها، ويبدأ غالباً بذكر المحور العام الذي تعالجه السورة ومن ذلك يقول في بيان سورة البقرة: ((هذه السورة تضم عدة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج

يتربط الخطان الرئيسيان فيه ترابطاً شديداً... فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، ... وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها... وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين، كما سيجيء في استعراضها التفصيلي))⁴⁷.

وقد قال في معرض تفسيره لسورة النور: ((والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو "محور

التربية" التي تشدّ في وسائلها إلى درجة الحدود، وترقّ إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيعة... والهدف واحد في الشدة واللين... ويجري سياق السورة حول محورها الأصل في خمسة أشواط))⁴⁸.

بتقسيمه للسورة الواحدة إلى "أشواط"، والشوط يقصد به مقطع الآيات التي تناولت موضوعاً

فرعياً، يقسم بعد ذلك هذا المقطع أو "الموضوع" إلى دروس يجمعها جامع السياق الذي يبين المناسبة بينها، يقول في مستهلّ تفسيره لسورة الكهف:

⁴⁶ في ظلال القرآن: (1/ 246)

⁴⁷ المصدر السابق: (1/ 28)

⁴⁸ المصدر السابق: (4/ 2486)

((ويسير سياق السورة حول هذه الموضوعات الرئيسية في أشواط متتابعة: تبدأ السورة بالحمد لله الذي أنزل على عباده الكتاب... ويبدأ الشوط الثاني بتوجيه الرسول ﷺ... والشوط الثالث: يتضمن عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة... وينتهي ببيان سنة الله في إهلاك الظالمين))⁴⁹. وتظهر هذه التقسيمات جلية في طوال السور إلا أن سيد قطب لا يترك الإشارة إلى ملمح تقسيمه هذا حتى في قصار السور،

ومثال ذلك قوله في معرض تفسير سورة الزمر: ((والسورة تعالج الموضوع الواحد الرئيسي فيها في جولات قصيرة متتابعة تكاد كل جولة منها تختتم بمشهد من مشاهد القيامة، أو ظل من ظلالها، وسنحاول أن نستعرض هذه الجولات المتتابعة كما وردت في السياق، إذ إنه يصعب تقسيم السورة إلى دروس كبيرة، وكل مجموعة قليلة من آياتها تصلح حلقة تعرض في موضعها، ومجموع هذه الحلقات يتناول حقيقة واحدة، حقيقة التوحيد الكبيرة))⁵⁰.

وبذلك يمكن القول بأن سيد قطب قد وفق في إخراج نظريته حول شخصية السورة، والتي تعني الموضوع العام الذي تعالجه السورة، وقد يكون مرد ذلك نظرة الناقد الأديب التي كان يتمتع بها سيد، إذ ينظر في نص الآيات نظر الناقد في سرد الموضوع مستخرجاً من المناسبات الرابطة بين أجزاء تراكيب السورة محوراً تتفق السورة على اختلاف الطرح فيها على خدمته، فيكون هذا المحور هو الجانب الذي تعالجه السورة.

⁴⁹ في ظلال القرآن: (4/ 2259)

⁵⁰ المصدر السابق: (5/ 3035)

المبحث الثاني: ابن عاشور مفسراً:

المطلب الأول: نسبه ونشأته وحياته:

نسبه ومولده:

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور الأندلسي أصلاً، التونسي منشأً، والمالكي مذهباً، ولد سنة (1296هـ = 1879م) في بيت علم وصلاح، جدّه لأبيه الشيخ محمد الطاهر كبير علماء تونس، ونقيب أشرافها، وصاحب خطة الإفتاء في دولة محمد الصادق باي⁵¹، وجده لأمه الشيخ محمد العزيز بوعتير⁵².

طلبه للعلم وشيوخه:

حفظ القرآن في الكتاب صغيراً، وعرف عنه النجابة والذكاء، تعلّم الفرنسية، ثم التحق بدروس جامع الزيتونة سنة 1310هـ - 1892م فكان مرشده وواضع خطته العلامة عمر بن الشيخ، فاختار لتدريسه جماعة وهم: الشيخ عمر بن الشيخ نفسه، وإبراهيم المارغني، وصالح الشريف، وسالم بو حاجب، ومحمد بن النجار، ومحمد بن يوسف، ومحمد النخلي.

نال شهادة التطويع سنة 1317هـ - 1896م، وتقابل المرحلة الثانوية من التعليم المعاصر، ثم اجتاز مناظرة التدريس من الرتبة الثانية بنجاح سنة 1320هـ - 1899م، واستمر في طلب العلم في الجامع الزيتونة واجتاز مناظرة التدريس من الرتبة الأولى سنة 1324هـ - 1903م⁵³.

مكانته ومبلغه من العلم:

شيخ المقاصد في هذا العصر بلا منازع ومجدّدها، وصاحب التفسير الذائع الصيت الذي شارف به منزلة المتقدمين،

قال عنه صاحب شجرة النور الزكية: ((فهو الآن بتونس غيث واديها، ومصباح ناديها، وقطب رحاها، وشمس ضحاها))⁵⁴ كانت أول أعماله في سلك التعليم الشرعي بعد اجتيازه لمناظرة رتبة التدريس الثانية بسنة واحدة، فاختير للتدريس بالمدرسة الصادقية سنة 1321هـ = 1900م، ثم كلف نائباً عن الدولة بنظارة جامع الزيتونة بعد اجتيازه لمناظرة رتبة التدريس الأولى، وكانت هذه

⁵¹ تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد مخلوف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: 1، ت ط: 1405هـ = 1985م، ينظر: (3/

(304)

⁵² شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، تعليق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب

العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، ت ط: 1424هـ = 2004م، ينظر: (1/ 609)

⁵³ ينظر: وتراجم المؤلفين التونسيين: (3/ 304)

⁵⁴ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: (1/ 609)

المحطة هي أولى مراحل تميّز الشيخ الإمام، فقد أبدى فيها سمو الفكر فسعى إلى الإصلاح في نظم التعليم، وحاول إحياء دروس اللغة العربية التي كانت تقتصر على فرعي النحو والبلاغة، فأوسع المجال للصرف والأدب في مراحل التعليم الثلاث، وكان ذلك ممّا عرضه في خطة الإصلاح التي عرضها على الحكومة في وقتها، وقد ظهر اهتمام الشيخ جلياً بتنشئة جيل على روح الإسلام وقيمه، فسعى إلى إيجاد تعليم ابتدائي إسلامي عندما سمّي عضواً في لجنة تنقيح برامج التعليم⁵⁵.

أصبح ضمن أعضاء هيئة النظارة العلمية لجامع الزيتونة سنة 1331هـ - 1913م بتسميته قاضياً مالكيّاً للجماعة، ثمّ عاد للتدريس في جامع الزيتونة والمدرسة الصادقية، وفي السنة ذاتها سمّي نائباً للشيخ باش مفتي وذلك سنة 1341هـ - 1923م وتولى خطة الباش مفتي سنة 1927م، وسمّي شيخ الإسلام المالكي سنة 1932م وكان أول من تسمّى بهذا اللقب.

تولّى مشيخة الزيتونة لمرحلتين أبعد عن أولها لأسباب سياسية، والتي أسندت إليه بالتوازي وتسميته شيخ الإسلام المالكي، والأخرى كانت في ربيع الأول، 1364هـ - نوفمبر من سنة 1944م، وفي هذه الفترة كانت قد ألغيت النظارة العلمية، فعاد إليها بمسمى شيخ جامعة الزيتونة، ثمّ اعتزل هذا المنصب سنة 1951م، وعاد إليها عميداً لجامعة الزيتونة في ابريل 1956م، عرفت مدة استلامه لمشيخة الزيتونة إصلاحات في نظام التعليم داخل الزيتونة تعرّض خلالها الإمام لحملات من التشويه المتعمّد⁵⁶.

مصنفاته تراثه العلمي:

اغترف الإمام الشيخ الطاهر من ينبوع المعرفة حدث السنّ، فبلغ في رتب العلم مبلغ قد يقطع بأنّ أحداً من أقرانه لم يصله؛ فقد كان ضليعاً في اللغة، صاحب بيانٍ ومنطق، اعتلى عضوية مجمعي اللغة العربية بالقاهرة ودمشق، عارفاً بعلوم الشريعة، متبحراً في مراميهها، فلم يكن متعصباً لمذهبه، ينظر في الأدلة، ويسبر مقاصدها دون تعلّق يفقد نصوص الشرع مزيّة التعبد بالتسليم، تشهد له بذلك مصنفاته التي طرق بها كلّ أبواب العلوم، وهي عديدة بتعدّد أبوابها منها المخطوط، ومنها ما طبع وأصبح بين يدي طلبة العلم، ومنها:

⁵⁵ أخرج هذه اللائحة عن خمس مدن هي: القيروان، وسوسة، وتوزر، وصفاقس، وقفصة.

⁵⁶ ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين لمخلوف: (3/ 304 - 306)

أولاً: مصنفات في علوم الشريعة:

1. آراء اجتهادية.
2. التحرير والتنوير في تفسير القرآن الكريم.
3. أصول التقدم في الإسلام.
4. التوضيح والتصحيح وهو حاشية على تنقيح أصول الفقه للقرافي.
5. أليس الصبح بقريب.
6. كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ.
7. أمالي على مختصر خليل.
8. مقاصد الشريعة الإسلامية.

ثانياً: مصنفات في علوم اللغة وآدابها:

1. أصول الإنشاء 2. شرح ديوان الحماسة.
3. أمالي دلائل الإعجاز 4. شرح قصيدة الأعشى الأكبر في مدح المخلّق.
5. شرح معلقة امرئ القيس.
6. تحقيق وتعليق على كتاب خلف الأحمر المعروف بمقدمة في النحو.
7. موجز البلاغة.
8. تحقيق وتصحيح وتعليق على كتاب الاقتضاب لابن السيد البطليوسي مع شرح الكاتب.⁵⁷

محتنه ووفاته:

عاش الإمام عهد الاستعمار الفرنسي وفي عهد ولايته القضاء بل الإفتاء أصدرت فرنسا مرسوم التجنيس في حق أهل تونس، وكان ذلك ممّا ابتلي به الشيخ فقد عرف عنه إجادته اللغة الفرنسية دراسته في المدرسة الصادقية وتدرسه به، وقد كانت قطب التعليم الغربي في بلاد تونس، فاتّهم الشيخ بموالاته لفرنسا، ولم يعرف العامة بما صدر من فتوى عن رئاسة المجلس الشرعي لعلماء المالكية الذي أفتى بصريح العبارة ودون موارد "بأنّه يتعين على المتجنّس عند حضوره لدى القاضي أن ينطق بالشهادتين ويتخلّى في نفس الوقت عن جنسيته التي اعتقها". وقد طال بالإمام العمر، وامتنح في أواخر حياته سنة 1970م بوفاة ولده محمد الفاضل الذي كان علماً من أعلام المذهب، وأحد المبرزين في عصره، فصبر على الفقد، وأظهر رباطة جأش مكنته من تولي الصلاة عليه.⁵⁸

⁵⁷ لعدم تمكني من معرفة المخطوط والذي طبع منها أثرت أن أقسمها بحسب علومها، تراجم المؤلفين التونسيين: (307 /3 _ 309)

⁵⁸ ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين لمخلف: (314 /3)

توفي رحمه الله وأسكنه فسيح جنّته يوم الأحد 13 من شهر الله المحرم رجب 1393هـ الموافق 12 أغسطس 1973م دفن بمقبرة الزلاج⁵⁹.

المطلب الثاني: منهج ابن عاشور وأصول التفسير في تفسيره التحرير والتنوي: أولاً: منهجه في تفسير التنوير والتحرير:

انتهج الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره منهج التحليل على وجه الكمال، ولم يهمل فيه تحقيق الأقوال وترجيحها، وهذا عين المنهج المقارن، ويظهر ذلك في قوله: ((فجعلت حقاً عليّ أن أبدي في تفسير القرآن نكتاً لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة وأونة عليها، فإنّ الاختصار على الحديث المعاد تعطيل لفيض القرآن الذي ماله من نفاذ))⁶⁰. ولعلّ الوسم الكامل للتصنيف والذي هو "تحرير المعنى السديد وتوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"⁶¹ يظهر معناه جلياً في عبارة الشيخ السابقة.

أردف الشيخ تمهيده بمقدمات عشر تناول في كلّ واحدة منها قاعدة من قواعد التفسير، عرض خلال ذكره لكلّ واحدة منها مذاهب العلماء في العمل بها عند تفسير آيات الكتاب العزيز، وبين ما ترجّح عنده فيها، والضوابط التي تحكمها، وهذه المقدمات على الترتيب:

المقدمة الأولى: في التفسير والتأول وكون التفسير علماً، المقدمة الثانية: في استمداد علم التفسير، المقدمة الثالثة: في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي، المقدمة الرابعة: فيما يحق أن يكون غرض المفسّر، المقدمة الخامسة: في أسباب النزول، المقدمة السادسة: في القراءات، المقدمة السابعة: في قصص القرآن، المقدمة الثامنة: في اسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها، المقدمة التاسعة: في أنّ المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها، المقدمة العاشرة: في إعجاز القرآن.

تفسيره للسور:

يبدأ الشيخ تفسيره لآيات السورة بنحو من الإجمال لمعاني السورة ذاتها، وهي مقدمة لم يسبقه إليها على هذا النحو من الشمول أحد من المفسرين، وذلك على النحو الآتي:

⁵⁹ ينظر، تراجم المؤلفين التونسيين لمخلوف: (3/ 307)

⁶⁰ التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، ط: بلا، ت ط: 1984م، (1/ 7)

⁶¹ المصدر السابق: (1/ 8)

1. بيان اسم السورة: يستهلّ الشيخ الطاهر تفسيره لكلّ سورة بذكر اسمها الذي اشتهرت به ثمّ يذكر أسماءها الأخرى مبيّناً وجه إطلاق الاسم عليها، ويدلّل على تسميتها بما بين يديه من المأثور، يقول في مستهلّ حديثه عن سورة الفاتحة: ((سورة الفاتحة من السور ذات الأسماء الكثيرة، أنهاها صاحب "الإتقان" إلى نيف وعشرين... ولم يثبت في السنة الصحيحة والمأثور من أسمائها إلا فاتحة الكتاب، والسبع المثاني، وأم القرآن، أو أم الكتاب))⁶².

2. بيان نوعها مكية أم مدنية: يبين بعد ذكره لاسم السورة نوعها من حيث النزول مكية أم مدنية ويذكر، ما اختلف العلماء فيه من آياتها إن وجد في السورة أية من قبيل المختلف في موضع نزوله، يقول في ذكر بيان نزول سورة النساء شارحاً ذلك بالنظر في حوافّ الأحداث التي جاءت آيات السورة على ذكرها: ((فإذا كان كذلك تكون سورة النساء نازلة بعد وقعة الأحزاب التي هي في أواخر سنة أربع أو أول سنة خمس من الهجرة، وبعد صلح الحديبية الذي هو في سنة ست حيث تضمنت سورة الممتحنة شرط إرجاع من يأتي من المشركين هارباً إلى المسلمين عدا النساء... فالذي يظهر أنّ نزول سورة النساء كان في حدود سنة سبع وطالت مدة نزولها... وفيها آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]، نزلت يوم فتح مكة في قصة عثمان بن طلحة الشيباني، صاحب مفتاح الكعبة))⁶³.

3. ترتيب السورة من حيث النزول وعدد آياتها: لا يغادر ابن عاشور بيانه المجلل للسورة دون ذكر ترتيبها في النزول موضعاً السورة التي سبقتها والتي تلتها، ولا ينسلّ حتى يبين رأيه في ترتيبها في المصحف إن كان سياق الحال يقتضي ذلك⁶⁴، عادداً آياتها ذاكراً اختلافاً مصاحف الأمصار في عدّ الآيات إن وجد، ومن ذلك قوله في معرض تفسيره لسورة المائدة: ((وقد عدت السورة الحادية والتسعين في عدد السور على ترتيب النزول. عن جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الأحزاب وقبل سورة الممتحنة، وعدد آياتها: مائة واثنان وعشرون في عدد الجمهور، ومائة وثلاث وعشرون في عدد البصريين، ومائة وعشرون عند الكوفيين))⁶⁵.

⁶² التحرير والتنوير: (1/ 131)

⁶³ المصدر السابق: (4/ 211 _ 212)

⁶⁴ في بيانه لسورة المائدة يظهر جلياً أنّ الإمام يرى بأنّ ترتيب المصحف توقيفي اجتهادي لا توقيفي، إذ يقول بعد ذكره لترتيب نزولها: ((وجعلت هذه السورة في المصحف قبل سورة الأنعام مع أن سورة الأنعام أكثر منها عدد آيات: لعل ذلك لمراعاة اشتغال هذه السورة على أغراض تشبه ما اشتملت عليه سورة النساء عوناً على تبيين إحداها للأخرى في تلك الأغراض)). التحرير والتنوير

(6/ 72)

⁶⁵ المصدر السابق: الصفحة نفسها.

4. أسباب النزول: أسباب النزول باب من الأبواب التي لا يمكن فهم عديد الآي دون نظر إليها وسبر أغوارها وما كان على ذلك من الأهمية في بيان المعنى لم يكن ليفوت الشيخ الجليل ذكره، وهو في ذكره لها في بيانه الإجمالي للسورة إنما يضع المرتكز العام الذي يبين به أظهر ما يمكن أن يكون مقصد السورة وموضوعها الذي تعالجه؛ لذلك فإنه لا يذكرها ابتداءً وإنما يذكرها متأخرة قبل ذكره لأغراض السورة يقول في بيان سورة آل عمران: ((وقد عملت أن سبب نزول هذه السورة قضية وفد نجران من بلاد اليمن. ووفد نجران هم قوم من نجران بلغهم مبعث النبي ﷺ، وكان أهل نجران متدينين بالنصرانية))⁶⁶.

أو في معرض بيان مكي السورة أو مدنيها إن وجد، ومنه قوله في بيان سورة هود: ((وقال ابن عطية: هي مكية إلا

ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ﴾ [هود:12]، وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِن رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [هود:17] قيل نزلت في عبد الله بن سلام، وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْبَهَارِ﴾ [هود:114]، قيل نزلت في قصة أبي اليسر كما سيأتي، والأصح أنها كلها مكية، وأن ما روي من أسباب النزول في بعض آياتها توهم لاشتباه الاستدلال بها في قصة بأنها نزلت حينئذ كما يأتي⁶⁷، أو في بيان ترتيبها في النزول إن اختلفوا فيه، ومن ذلك بيانه لسبب نزول سورة المزمل بعد ذكره للأخبار الواردة فيها حكم بالاضطراب على بعضها، ثم عطف بذكر ما حكم بصحة أن يكون سبب نزول؛ ومنه حكم بترتيب نزولها فقال: ((واختلف في عد هذه السورة في ترتيب نزول السور... والجمهور على أن المذثر نزلت قبل المزمل، وهو ظاهر حديث عروة بن الزبير عن عائشة في بدء الوحي⁶⁸ من "صحيح البخاري" وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿بَيَّأَهَا الْمَزْمَلُ﴾.

⁶⁶ التحرير والتنوير: (3/ 145)

⁶⁷ التحرير والتنوير: (11/ 311 _ 312)، الترجيح لابن عاشور، وإنما قال ابن عطية بأن الأولى تشبه المكي ولم يعرج على غيرها، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تح: عبد الله الأنصاري وآخرين، مطبوعات: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، تنفيذ: مطابع دار الخير، ط: 2، ت: ط: 1428هـ = 2007م، ينظر: (11/ 536)

⁶⁸ الحديث المشار إليه، هو حديث عائشة في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: (3)، (7/ 1)، ولكن هذا الحديث لا ذكر فيه لترتيب نزول أي من سور القرآن الكريم، والحديث الذي يبين أن المزمل نزلت بعد المذثر وإن كان لا يبين ترتيبها على وجه القطع لقول بأن القيامة كانت سابقة لها، هو حديث جابر _ رضي الله عنه _ الذي يليه: (4).

والأصح أن سبب نزول يا أيها المزمّل ما في حديث جابر بن عبد الله الآتي عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ [المزمّل: 1]⁶⁹.

5. أغراض السورة: أغراض السورة ومقاصدها وموضوعاتها هي أحد أهم ما يفتتح به الشيخ الطاهر بن عاشور تفسيره بالرأي، فقد أبان في كلّ سورة المقاصد العليا التي نزلت آيات السورة لبيانها، فيذكر جملة الموضوعات التي انطوت تحتها دون ذكر لمقاطع الآيات التي حملت معاني الموضوع، ومن ذلك قوله في سورة الماعون: ((من مقاصدها التعجيب من حال من كذبوا بالبعث وتقطيع أعمالهم من الاعتداء على الضعيف واحتقاره والإمساك عن إطعام المسكين، والإعراض عن قواعد الإسلام من الصلاة والزكاة لأنه لا يخطر بباله أن يكون في فعله ذلك ما يجلب له غضب الله وعقابه))⁷⁰.

تفسيره للآيات:

دأب الإمام الطاهر بن عاشور على تفسير آيات القرآن الكريم آية آية على وجه التفصيل، مبيناً في تفسيره لها معاني مفرداتها، وصور بلاغتها وإعجازها، وأقوال المتقدمين في بيان معناها، وما أثر عن السلف في معانيها، دون إغراب في النقل، أو إعراض عن العقل.

ثانياً: الأصول التي اعتمدها في التفسير:

أولاً: الأصول والمآخذ النقلية:

1. التفسير بالقرآن:

يرى الإمام أنّ الآية من القرآن لا تعتبر مفسرة لغيرها من آي القرآن؛ لأنّ التفسير بها هو من باب الاستمداد، والقرآن لا يستمد معناه بعضه من بعض، وإنّما يحمل فيه ما كان متفقاً في المعنى بعضه على بعض، كما يحمل مطلقه على مقيدته وعامه على خاصه، أي هو عين المراد من المعنى يقول: ((ولا يعد أيضاً من استمداد التفسير ما في بعض آي القرآن من معنى يفسر بعضاً آخر منها، لأنّ ذلك من قبيل حمل بعض الكلام على بعض، كتخصيص العموم وتقييد المطلق وبيان المجمل وتأويل الظاهر ودلالة الاقتضاء وفحوى الخطاب ولحن الخطاب ومفهوم المخالفة))⁷¹

⁶⁹ التحرير والتتوير: (29/ 254)، والحديث الذي يشير إليه ابن عاشور هو ما تفرد به معلى بن عبد الرحمن عن شريك، من خبر اجتماع قريش في دار الندوة وفيه: (فصدر المشركون على ذلك، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فزمل في ثيابه ودثر، فأنزل الله عز وجل: يا أيها المزمّل، يا أيها المدثر). ينظر: المعجم الأوسط لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، تح: طارق بن عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ينظر، باب: الألف، من حديث رقم: (2096)، (2/ 319)

⁷⁰ التحرير والتتوير: (30/ 564)

⁷¹ المصدر السابق: (1/ 27)

ولكنه يفسر بعض الألفاظ في الآية بما يدل عليه معناه في غيرها ما اتفق معه في السياق، ومثاله تفسيره لمعنى الجعل في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1]، بعد أن ذكر قول الزمخشري بأن الفعل جعل متى عدّي إلى مفعول واحد فهو بمعنى الإيجاد والخلق⁷²، ثم بين الفرق بين الخلق والجعل فقال: ((والفرق بينه وبين (خلق) فإن في الخلق ملاحظة معنى التقدير، وفي الجعل ملاحظة معنى الانتساب، يعني كون المفعول مخلوقاً لأجل غيره أو منتسباً إلى غيره، فيعرف المنتسب إليه بمعونة المقام.

فالظلمات والنور لما كانا عرضيين كان خلقهما تكويناً لتكيف موجودات السماوات والأرض بهما، ويعرف ذلك بذكر الظلمات والنور عقب ذكر السماوات والأرض، وباختيار لفظ الخلق للسماوات والأرض، ولفظ الجعل للظلمات والنور، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: 189]، فإن الزوج وهو الأنثى مراعى في إيجاده أن يكون تكملة لخلق الذكر، ولذلك عقبه بقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]، والخلق أعم في الإطلاق ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُورًا يَكْفُرُ الَّذِينَ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1]، لأن كل تكوين لا يخلو من تقدير ونظام⁷³.

أما ما كان في حرفه قراءات فإنه يرى الأخذ بها في تفسير بعضها بعضاً، والعلماء على أن القراءتين المتواترتين في الآية الواحدة هما بمثابة آية مستقلة، حيث يقول: ((وأنا أرى أن على المفسر أن يبين اختلاف القراءات المتواترة لأن في اختلافها توفيراً لمعاني الآية غالباً فيقوم تعدد القراءات مقام تعدد كلمات القرآن))⁷⁴، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

((قرأ الجمهور: «حَتَّى يَطْهَرْنَ» بصيغة الفعل المجرد، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف (يَطْهَرْنَ) بتشديد الطاء والهاء مفتوحتين... فإن كان الأول أفاد منع القربان إلى حصول النقاء من دم الحيض بالجفوف، وكان قوله تعالى: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ» بعد ذلك شرطاً ثانياً دالاً على لزوم تطهر آخر؛ وهو غسل ذلك الأذى بالماء؛ لأن صيغة (تَطَهَّرَ) تدل على طهارة معاملة،

⁷² الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تح: عادل عبد الموجود وآخرين، مكتبة العبيكان، ط: 1، ت ط: 1418 هـ = 1998 م، ينظر: (2/ 320)

⁷³ التحرير والتتوير: (7/ 126)

⁷⁴ المصدر السابق: (1/ 56)

وإن كان الثاني كان قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ تصريحاً بمفهوم الغاية ليني عليه قوله: ﴿فَأَتُوهُنَّ﴾، وعلى الاحتمال الثاني جاء قراءة: ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ بتشديد الطاء والهاء، فيكون المراد الطهر المكتسب؛ وهو الطهر بالغسل، ويتعين على هذه القراءة أن يكون مراداً منه مع معناه لازمه أيضاً؛ وهو النقاء من الدم ليقع الغسل موقعه، بدليل قوله قبله ((فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ)) في الحيض، وبذلك كان مآل القراءتين واحداً⁷⁵.

2. التفسير بالسنة المطهرة:

لا يمكن لمخلوق أن يعرف مراد الله تعالى على جهة اليقين كالرسل؛ لأنهم حملة البيان من الله سبحانه إلى الخلق، ولن يكون منهم بيان دون علم، وإن كان ابن عاشور يرى أن السنة كما القرآن ليست مداداً للتفسير، وإنما هي عين مراده على وجه البيان التام الذي تحمل عليه الآية؛ لذا فهو يقصر المعنى عليه متى صحَّ عنده الحديث⁷⁶، ومن ذلك تفسيره لمعنى الظلم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَمْنُونَ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]، على أنه الشرك، بناءً على ما ورد في الحديث الشريف⁷⁷، ((عن عبد الله بن مسعود: لما نزلت ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَمْنُونَ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ شق ذلك على المسلمين وقالوا: أئنا لم نظلم أنفسنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: إنَّ الشرك لظلم عظيم))⁷⁸.

ولكنه إذا ما كان في الحديث علة متن أو سند، فإنه يردّه ويقدم غيره عليه على اعتبار أن القادح في الأثر ينزل مرتبته بل قد يخرج من الاستدلال كما هو معلوم، فقال عند تفسيره لحدّ البلوغ وزمنه في قوله تعالى: ﴿وَابْلَوْا الَّذِينَ يَئْتِيَنَّكُمْ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَاسَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعَفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: 6]، بعد أن ذكر رأيه في حدّ ذلك ((روي أن النبي ﷺ قال: إذا استكمل الولد خمس عشرة سنة كتب ما له وما عليه، وأقيمت عليه الحدود، وهو حديث ضعيف لا ينبغي الاستدلال به))⁷⁹.

⁷⁵ التحرير والتنوير: (2/ 367)

⁷⁶ ينظر: المصدر السابق: (1/ 27)

⁷⁷ ينظر: المصدر السابق: (7/ 332)

⁷⁸ صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب، ظلم دون ظلم، حديث رقم: (32)، (1/ 15)

⁷⁹ التحرير والتنوير: (4/ 239)، وهذا الحديث ذكر طرفه البيهقي في سننه الكبرى وضعفه. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي

بن موسى البيهقي، تح: محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 3، ط، 2003 م. ينظر: (6/ 94)

3. أسباب النزول:

هي من أهمّ المآثور الذي يعالج به الشيخ الطاهر اختلاف المفسرين في الحكم على سورة بعينها، أو آية مفردة فيها، ولكّنه على الرغم من ذلك لا يقول بها دون عرض وتمحيص، ولذلك ردّ بعض روايات أسباب النزول بعضها لأسانيدها وبعضها لمخالفتها السياق، حيث يقول في ذلك: ((ولكن أسباباً كثيرة رام روايتها تعيين مراد من تخصيص عام أو تقييد مطلق أو إلقاء إلى محمل، فتلك هي التي قد تقف عرضة أمام معاني التفسير قبل التنبيه على ضعفها أو تأويلها))⁸⁰.

ومن ذلك قوله في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 93]، ((فالمعنى لا جناح عليهم إذ كانوا آمنوا واتقوا، ويؤول معنى الكلام: ليس عليهم جناح لأنهم آمنوا واتقوا فيما كان محرماً يوماً وما تناولوا الخمر وأكلوا الميسر إلا قبل تحريمهما، هذا تفسير الآية الجاري على ما اعتمده جمهور المفسرين جارياً على ما ورد في من سبب نزولها في الأحاديث الصحيحة⁸¹... وادعى بعضهم أنّ هذه الآية نزلت في القوم الذين حرموا على أنفسهم اللحم وسلكوا طريق الترهّب، ومنهم عثمان بن مظعون، ولم يصحّ أن هذا سبب نزولها، ... ويعكر على هذا التفسير أن الذين حرموا الطيبات على أنفسهم لم ينحصر تحريمهم في المطعوم والشراب بل يشمل اللباس والنساء، اللهم إلا أن يقال: إنّ الكلام جرى على مراعاة الغالب في التحريم))⁸².

4. أقوال الصحابة:

لا يهمل الطاهر بن عاشور أقوال الصحابة، بل يتخذ من بعض أقوالهم ضابطاً في بيان مناسبة الخطاب وأساليبه ومضامين معانيه، ومن ذلك قوله في معرض بيانه لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 275]، ((ومن عادات القرآن أن يذكر أحوال الكفار إغلاظاً عليهم، وتعريضاً بتخويف المسلمين، ليكره إياهم لأحوال أهل الكفر. وقد قال ابن عباس: كل ما جاء في القرآن من ذم أحوال الكفار فمراد منه أيضاً تحذير المسلمين من مثله في الإسلام، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾... ثم عطف إلى خطاب المسلمين

⁸⁰ التحرير والتنوير: (1/ 46)

⁸¹ سبب النزول هذا أخرجه البخاري في صحيحه؛ ينظر: البخاري: كتاب، تفسير القرآن، باب، سورة المائدة، حديث رقم: 4620، (6/ 54)

⁸² التحرير والتنوير: (7/ 34)

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُثُرَ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) الآيات، ولعل بعض المسلمين لم ينكف عن تعاطي الربا أو لعل بعضهم فتن بقول الكفار: إنما البيع مثل الربا. فكانت آية سورة آل عمران مبدأ التحريم، وكانت هذه الآية إغلاق باب المعذرة في أكل الربا وبياناً لكيفية تدارك ما سلف منه⁸³.

ثانياً: الأصول والماخذ العقلية:

الأصول العقلية في مردّها لا تخلو من اثنين في الغالب وإن ذكر غيرهما، فليس على الصحيح اعتباره أصل ولكنّه قاعدة ترسم معالم الأصل، وتضبط صور إعماله، وهذان الأصلان هما: اللغة من حيث علومها وآدابها، والسياق بشقيه المقامي فضلاً عن المقالي الذي يدخل ضمن الأصل الأول، وقد وضّح ابن عاشور في مقدماته بأنّ علوم العربية مقصد كلّ مريد للتفسير، سواء كان ذلك بالسليقة والقريحة الصافية أو كان بمدارسة علوم اللسان العربي، ويقول في ذلك: ((القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ويعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين))⁸⁴.

1. دلالة اللفظ في أدب العرب:

يظهر في كتاب ابن عاشور اهتمامه البالغ بالشواهد في بيان معنى الدلالة اللفظية، وفي بيان وجه الإعراب، وقد يذكر في بيان ذلك شواهد عديدة تبين تغاير المعنى من حال إلى حال ثمّ يبين وجه الفارق في المعنى الذي جعله يركن إلى أحدها بعينه، ومجال ذلك كما هو معلوم معاني النحو ومثاله: استعراضه لمعاني القيام الذي هو إقامة الشيء، لا الوقوف المعلوم بكيفيته، فقال: ((ومعنى إذا قمتم إلى الصلاة إذا عزمتم على الصلاة؛ لأنّ القيام يطلق في كلام العرب بمعنى الشروع في الفعل، قال الشاعر:

فقام يذود الناس عنها بسيفه ... وقال ألا لا من سبيل إلى هند⁸⁵

وعلى العزم على الفعل، قال النابغة: قاموا فقالوا حمانا غير مقروب⁸⁶

⁸³ التحرير والتنوير: (3/ 81)

⁸⁴ المصدر السابق: (1/ 18)

⁸⁵ البيت من الطويل، يذكر بلا نسبة في كتب اللغة، والشاهد فيه لفظ "قام" ورد على معنى شرع في سياق البيت.

⁸⁶ البيت من البسيط، مصدره: نبئت حصناً وحياً من بني أسد. ديوان النابغة الذبياني، للذبياني زياد بن معاوية بن ضباب، اعتنى به: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004 م. (ص/ 9)

أي عزموا رأيهم فقالوا، والقيام هنا كذلك بقرينة تعديته بـ " إلى " لتضمنينه معنى عمدتم إلى أن تصلوا⁸⁷)).

وقد يلجأ إلى الاشتقاق في بيان المعنى عند خفائه أو عند إرادته إظهار نكتة بلاغية فيه؛ ليزيد المعنى جلاءً ومن ذلك بيانه لنوع اشتقاق اللفظ "اليتامى" وبين كيف أن هذا اللفظ على ما هو عليه انطوى على إيجازٍ حوى معانٍ لا تظهر في غيره، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا آلَيْنَتِي أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدُلُوا الْحَيْثُ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء: 2].

حيث قال: ((واليتامى جمع يتيم وجمع يتيمة، فإذا جمعت به يتيمة فهو فعائل أصله يتائم، فوقع فيه قلب مكاني فقالوا يتامىء ثم خففوا الهمزة فصارت ألفاً وحركت الميم بالفتح، وإذا جمع به يتيم فهو إما جمع الجمع بأن جمع أولاً على يتمى، كما قالوا: أسير وأسرى، ثم جمع على يتامى مثل أسارى بفتح الهمزة، أو جمع فاعيل على فعائل لكونه صار اسماً مثل أفيل وأفائل، ثم صنع به من القلب ما ذكرناه آنفاً، وقد نطقت العرب بجمع يتيمة على يتائم وبجمع فاعيل على فعائل في قول بشر النجدي:

أطلال حسن في البراق يتائم ... سلام على أطلالكن القدائم⁸⁸)).⁸⁹

ثم يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور في معرض بيان مناسبة الآية التالية لها، وهي قوله تعالى: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي آلَيْنَتِي فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَلِكَ أَذْنُ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾ [النساء: 3])، ((واشتمال هذه الآية على كلمة اليتامى يؤذن بمناسبتها للآية السابقة، بيد أن الأمر بنكاح النساء وعددهن في جواب شرط الخوف من عدم العدل في اليتامى مما خفي وجهه على كثير من علماء سلف الأمة؛ إذ لا تظهر مناسبة أي ملازمة بين الشرط وجوابه. واعلم أن في الآية إيجازاً بديعاً؛ إذ أطلق فيها لفظ اليتامى في الشرط وقوبل بلفظ النساء في الجزاء، فعلم السامع أن (اليتامى) هنا جمع (يتيمة) وهي صنف من اليتامى في قوله السابق: ﴿وَأَتُوا آلَيْنَتِي أَمْوَالَهُمْ ۝٢﴾ [النساء: 2]، وعلم أن بين عدم القسط في يتامى النساء، وبين الأمر بنكاح النساء، ارتباطاً لا محالة وإلا لكان الشرط عبثاً⁹⁰)).

⁸⁷ التحرير والتنوير: (6/ 128)

⁸⁸ البيت من البحر الطويل، والشاهد فيه لفظ " يتائم " والمراد به هنا صغار النساء.

⁸⁹ التحرير والتنوير: (4/ 219)

⁹⁰ المصدر السابق: (4/ 222)

2. دلالة السياق:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: 100]، في تفسير ابن عاشور لهذه الآية يستفتح بذكر الراجح عنده؛ وهو أنَّ الواو للعطف عطف بها قصة على قصة، ثمَّ انتقل بها من ذكر شرك إلى شرك آخر من شرك العرب؛ لأنَّ ديانة العرب كانت أخلاطاً ممَّا يؤمن به غيرهم، وذكر عبادتهم الجن وأصنامهم التي هي صنائع أيديهم، واختلف المفسرون في المقصودين بكونهم نسبوا لله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً الولد في قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾، فذكر بعضهم أنَّهم اليهود، وآخرون أنَّهم النصارى، ثمَّ يعترض على ذلك مبيناً أنَّه لا يصلح مراداً بهؤلاء القائلين سوى مشركي العرب؛ فقد ذكرت الآيات أصناف الشرك عندهم، والشركاء لله، وقد عرف عن أحوالهم قبل البعثة أنَّهم جعلوا لله سبحانه شركاء على جميع ما أتت به الأمم، مبيناً ذلك من خلال مرجع الضمير والسياق⁹¹، فيقول: ((لأنَّ ذلك لا يناسب السياق ويشوش عود الضمائر ويخرم نظم الكلام فالوجه أنَّ المراد أن بعض المشركين نسبوا لله البنين وهو الذين تلقفوا شيئاً من المجوسية لأنَّهم لما جعلوا الشيطان متولداً عن الله تعالى إذ قالوا إِنْ الله لما خلق العالم تفكر في مملكته واستعظمها فحصل له عجب تولد عنه الشيطان... فقد لزمهم أنَّ الشيطان متولد عن الله تعالى عما يقولون، فلزمهم نسبة الابن إلى الله تعالى)).⁹²

3. مقاصد الشريعة:

لا غرو أنَّ مجدّد المقاصد في هذا العصر هو الشيخ الطاهر بن عاشور، لذا فلا مناص أن تجد المقاصد ملقبة بظلالها على بيان الأحكام والآيات المتعلقة بقواعد الفقه وأصوله، وعندما يتحدّث عن المقاصد فهو إمَّا أن يصرح بها أو يذكرها على أنَّها حكمة تشريع، وظهر في بعض الآيات سرده لاختلاف المفسرين لا في تفسير الآية والمعنى المراد منها، وإنَّما في الدليل الذي قادهم نحو التفسير ومكَّنهم من استخلاص المعنى؛ ولذا نجده يقول بعد أن استعرض أوجه استدلالهم باللغة والآثار الواردة عن الصحابة _ رضوان الله عليهم _ في بيان قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 230]، يذكر أنَّ الآية جاءت لبيان نهاية حق المراجعة صراحة، وأنَّها إمَّا أن تكون نسخاً لما تقرّر أول الإسلام إذا صحَّ ما روي في باب نسخ المراجعة بعد التطبيقات الثلاث

⁹¹ ينظر: التحرير والتنوير: (7/ 404 _ 408)⁹² المصدر السابق: (7/ 408)

عن ابن عباس رضي الله عنه: ((أَنَّ الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعته وإن طلقها ثلاثاً فنسخ ذلك ونزل الطلاق مرتان))⁹³، وإِذَا طَلَّقَ لَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَتَشْرِيعِ إِسْلَامِي جَدِيدٍ، فَقَالَ: ((وَلَا أَحْسَبُ دَلِيلَهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا الرُّجُوعَ إِلَى مَقْصِدِ الشَّرِيعَةِ، الَّذِي عِلْمُهُ سَائِرٌ مِنْ فَهْمِ هَذَا الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ، فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى مَتَحِ دَلَاءِ الْاِسْتِدْلَالِ))⁹⁴.

المطلب الثالث: منهج ابن عاشور في عرض موضوعات السور:

جعل الشيخ الطاهر من بيانه المجلل لأول السورة بياناً لأهم ما جاء في آياتها من اختلاف في نزولها، وما ورد فيها من اختلاف في أسباب نزولها، وهذا ديدن المفسرين، لكن ابن عاشور لا يغادر هذا الجزء من تفسيره للسورة حتى يعرض جميع ما تشتمل عليه آيات السورة من موضوعات على وجه التفصيل تحت مسمى " أغراض السورة " وهذا عنده مسلك عام في البيان.

ومما يدل على أَنَّ مقصوده بهذا اللفظ " أغراض " موضوعات السورة عندما يستقرّ على محور عام لها فيقول: (ومعظم أغراض السورة) أو (ومعظم أغراضها) يقول في مستهل سورة البقرة: ((قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقاً لتلقيها فسطاط القرآن، ... ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعاتهم)). (Ibn Aashoor, 1984, p. 1/ 203) وقد يذكر محورها فيقول: (مقصدنا الأساس) بعد ذكر موضوعاتها، ومن ذلك قوله بعد ذكر موضوعات سورة مريم: ((قد تكرر في هذه السورة صفة الرحمن ست عشرة مرة، وذكر اسم الرحمة أربع مرات فأنبأ بأن من مقاصدها تحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمن، والرد على المشركين الذين تقعرّوا بإنكار هذا الوصف كما حكى الله تعالى عنهم في قوله في سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ [الفرقان: 60])).

ولم يذكر ابن عاشور موضوعات السورة بغير هذا الاصطلاح إلا في سور معدودة وهي: في سورة يوسف، وسورة الرعد، وسورة الحجر يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في معرض تفسير سورة الرعد:

⁹³ سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن الأزدي السجستاني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط: بلا. ينظر: باب، نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث، حديث رقم: (2195)، (2/ 259)

⁹⁴ التحرير والتنوير: (2/ 414 - 416)، في هذه الآية تحديداً تظهر عديد الاختلافات بين أهل الأصول وإن كانت الثمرة واحدة وأصل ذلك، الزيادة على النص هل تعتبر نسخاً أم لا، وخير الواحد هل يقيد بنصوص القرآن الكريم أم لا؟

((أقيمت هذه السورة على أساس إثبات صدق الرسول ﷺ فيما أوحى إليه من أفراد الله بالإلهية، والبعث، وإبطال أقوال المكذبين؛ فلذلك تكررت حكاية أقوالهم خمس مرات موزعة على السورة بدءاً ونهاية، ومهد لذلك بالتبويه بالقرآن وأنه منزل من الله، والاستدلال على تفرد))⁹⁵.
كما أنه ذكرها سرداً دون أن تكون معنونة بما يشعر بأنها مقصودة لذلك الوضع فيقول: (واحتوت السورة) أو (اشتملت هذه السورة على أغراض)، وهذا لم يظهر في ما سوى ثلاث سور هي آل عمران والنساء والمائدة، يقول في معرض تفسيره سورة المائدة: ((وقد احتوت على تمييز الحلال من الحرام في المأكولات، وعلى حفظ شعائر الله... وفيها شرائع الوضوء... والأمر بالصدق في الشهادة، وأحكام القصاص في الأنفس والأعضاء، وأحكام الحراية، وتسليية الرسول ﷺ عن نفاق المنافقين))⁹⁶.

ومن هنا يمكن القول بأن تفسير الطاهر بن عاشور كان حافلاً بسرد موضوعات السور في تقديم كل سورة من سور القرآن بدقة وعناية دون إهمال لأيّ تفصيل في هذه الموضوعات، ولكنّ الشيخ لم يتوسع في ربط موضوعات السور بمحاور محدّدة تكون نقطة التقاء لمقاصد الشارع فيها، وهو أمر يستغرب من مجدد هذا العلم في عصره، ويبدو أنّ علة ذلك هو بحثه خلال تفسيره المجمل للسورة عن بيان أطرافها كاملة، وباستيعاب لذلك ترك البحث عن مناسبة الموضوعات في السورة الواحدة⁹⁷.

⁹⁵ التحرير والتنوير: (76 / 13)

⁹⁶ المصدر السابق: (73 / 6)

⁹⁷ لا يُقصد بذلك عدم قوله بالمناسبة ولكن يبدو أنّ الشيخ لم يرد إيجاز الموضوعات بروابط المناسبة ليعطي بافتتاحه هذا صورة عامة لكل موضوع بشكل مستقلّ عن غيره وإن كان أثراً أو سبباً.

المبحث الثالث: مقارنة بين منهجي المفسرين في موضوعات السور:

المطلب الأول: الإطلاق والتسمية:

ظهر جلياً اهتمام هذين العلمين بإظهار بيان شامل لكل سورة من سور القرآن الكريم، من خلال إيراد وذكر موضوعاتها في مستهل كل سورة ولكنهما اختلفا في أسلوب عرض هذه الموضوعات كما اختلفا في إطلاق مسمياتها.

ف نجد سيّد قطب لا يترك مسميات أربع وهي: الموضوع الرئيس، والمحور، والأشواط، أو المقاطع ثمّ الدروس⁹⁸ التي تأتي متأخرة، وهذه التسميات هي إطلاقات محدّدة لمفاهيم بعينها فلا يستخدم غيرها في محلّها وهو بذلك يكون قد رسم نهجاً ثابتاً في تناوله لملامح الموضوعات في السورة، يقول في مستهلّ بيانه لسورة الإسراء: ((تضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة))⁹⁹، ويقول في بيان موضوعاتها على وجه التفصيل: ((في تلك الموضوعات المنوعة حول ذلك المحور الواحد الذي بيّنّا، يمضي سياق السورة في أشواط متتابعة، يبدأ الشوط الأول: بالإشارة إلى الإسراء... ويستعرض الشوط الأخير: كيد المشركين للرسول ﷺ))¹⁰⁰.

بينما نجد الطاهر بن عاشور في عرضه لموضوعات السورة مستقراً على إطلاقات، وهي: الأغراض والمقاصد¹⁰¹، لا يتركها لغيرها وهو يذكرها دون توسع في التقسيمات ويكتفي بسرد ما يراه مقصود السورة ومضمون آياتها سرداً تاماً دون

إدراج تقسيمات تفصّل في بيان محور فرعي¹⁰² تنتمي إليه موضوعات فرعية بعينها، ومن ذلك قوله في أول سورة الأنفال وقد أحصى موضوعاتها في تسعة عشر موضوعاً: ((أغراض هذه السورة ابتدأت ببيان أحكام الأنفال وهي الغنائم وقسمتها ومصارفها ... وأحكام المسلمين الذين تخلفوا في مكة بعد الهجرة. وولايتهم وما يترتب على تلك الولاية))¹⁰³، وقال في سورة محمد: ((معظم ما في هذه السورة التحريض على قتال المشركين... وختمت بالإشارة إلى وعد المسلمين بنوال السلطان وحذرهم إن صار إليهم الأمر من الفساد والقطيعة))¹⁰⁴.

⁹⁸ إطلاق الدروس ظهر عنده متأخراً عن غيره في مستهلّ بيان السور وإن كان متقدماً نسبياً في بيان الآيات في مواضعها من السورة.

⁹⁹ في ظلال القرآن: (4/ 2208)

¹⁰⁰ المصدر السابق: (4/ 2209)

¹⁰¹ في جمع السور ذكرها على أنّا أغراض إلا في ثلاث، وهي: يوسف، والرعد، والحجر.

¹⁰² هذا الديدن الغالب على منهجه ولكنّه خالفه في سورة البقرة والنساء حيث ربط موضوعاتها بمحاور أصيلة ذكر بأنّها تجمع أغراضهما.

¹⁰³ التحرير والتنوير: (9/ 247)

¹⁰⁴ المصدر السابق: (26/ 72)

ومن هنا يمكن القول بأنَّ سيّد قد فرق في إطلاقاته بين محور السورة ومقصدها وبين موضوعاتها في كلّ سورة دون ترك لهذا المنهج في جميعها، أمّا ابن عاشور فقد التزم إطلاقاً واحداً هو الأغراض غالباً أمّا محورها فلا يستقصيه ولا يذكره غالباً إلاّ على سبيل الحاجة إلى ذكره.

المطلب الثاني: التوسع والتقسيم:

تختلف سور القرآن بين سور طوال وقصار سور وباختلافها هذا يختلف اتساع المواضيع وتباين محتواها ظاهراً، وإن كان هذا الاختلاف يخدم أصالة هدف السورة مقصداً وموضوعاً، ومن السابق ذكره عن اختلاف هذين المفسّرين في مسمّيات الموضوعات وإطلاقاتها عليها بحسب فحوى المراد بيانه من التقسيم ومن هنا يمكن القول بأنّ توسع المفسّرين في تقسيمهما راجع إلى النظرة التي عبر منها كلّ واحد منهما إلى استحضاره لهذه الموضوعات.

ف نجد سيّد قطب يقسمها بل يوغل في تقسيمها إلى أصغر وحدة موضوعية يمكن من خلالها استنتاج النّص القرآني بمعانيه البلاغية ومدلولاته النفسية، فيبدأ بذكر الموضوع الأساس وكأنّه يستحضر مسمّى الشخص فيها، ومن ثمّ بين الرابط بين موضوعاتها وكأنّه العصب الذي تسري به الحياة التي هي المناسبة بين أوصال السورة التي هي الوحدات الموضوعية الفرعية التي تخدم الموضوع الأصل؛ لذلك فإنّه لم يكتفِ بسرد الموضوعات وحاول بترتيبها تنازلياً أن يجعل القارئ لتفسيره يدرك وهو يتدرج في استحضاره لهذه الصور وجه المناسبة التي تدلّ على انسجام النّص وخدمة بعضه لبعض، يقول في بيان موضوعات سورة إبراهيم: ((ولقد تضمنت السورة عدة حقائق رئيسية في العقيدة، ولكن حقيقتين كبيرتين تظلان جو السورة كلها. وهما الحقيقتان المتناسقتان مع ظلّ إبراهيم في جو السورة))¹⁰⁵.

وفي سورة الشورى: ((ولكنّها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة، حتى ليصح أن يقال: إنّها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعاً لتلك الحقيقة الرئيسية فيها))¹⁰⁶.

أمّا الشيخ الطاهر فقد اكتفى بسرد الموضوعات مفصلة دون ذكر للمناسبة بين المواضيع تظهر من خلالها محاور السورة وأركانها، وهو مع ذلك لا يستوفي جميع موضوعاتها بل أبرز ما ورد بيانه في آيات السورة فقد يكون الموضوع متاولاً في آية واحدة من آيات السورة، يقول في ذكر أغراض سورة الزمر: ((ابتدئت هذه السورة بما هو كالمقدمة للمقصود وذلك بالتتويه بشأن القرآن تنويهاً تكرر في ستة مواضع من هذه السورة؛ لأنّ القرآن جامع لأغراضها، وأغراضها كثيرة تحوم حول إثبات

¹⁰⁵ في ظلال القرآن: (4/ 2077)

¹⁰⁶ المصدر السابق: (5/ 3136)

تفرد الله تعالى بالإلهية... والاستدلال على وحدانية الله في الإلهية بدلائل تفرد به إيجاد العوالم العلوية والسفلية¹⁰⁷، وفي هذه السورة على الرغم من ذكره لمقصد رئيس لكنه جعله وفق استقراء ناقص لستة مواضع كما ذكر، بخلاف سيد قطب الذي يخرج بين المقاطع جميعها ويثبت على تقسيمه في تناوله للوحدة الموضوعية في جميع السور، ويبدو ذلك لكون الطاهر بن عاشور لا يسعى خلال هذا البيان إلى إيجاد ملامح أصيلة ترد عليها معاني السورة يرسم بها الوحدة الموضوعية لها.

ومن هنا يمكن القول بأن سيد قطب قد ظهر سبقه في هذه الناحية عن ابن عاشور؛ فهو لم يبحث الموضوعات لسردها مفككة دون رابط؛ وإنما استحضر من خلال سياق ورابط المناسبة بين مجموع موضوعات فرعية بعينها الوحدة الموضوعية للسورة كاملة، ليعطيها عنواناً لموضوعاتها مجتمعة، ثم يسرد الموضوعات مفصلة.

كما أن محور السورة أو الخط المشترك بين موضوعات آياتها أمر لا يترك سيد قطب بيانه، بينما لا يلتفت إليه الطاهر بن عاشور في غالب السور، وبذلك يبدو أن ابن عاشور لم يكن يبحث عن المعنى العام للسورة بقدر بحثه عن الموضوعات التي تناولتها لتكون منطلقاً للمطالع في تفسيره؛ لذلك اكتفى بسردها دون بحث في ما يجمع بين هذه الموضوعات.

المطلب الثالث: الذكر والتكرار:

تكرار ذكر موضوعات السور، بل وذكرها ابتداءً على نحو متسق، هو أحد أوجه اختلاف هذين المفسرين في تناولهما لموضوعات السور.

في حين يبدأ سيد قطب بذكر الموضوعات وفق وحدات موضوعية مصغرة، مسبوقة بالوحدة الرئيسة لموضوع السورة، وهي التي يسميها (شخصية السورة) يستصحب معه خلال بيانه للآيات الوحدات الموضوعية الصغرى أو ما يسميه بالأشواط في تقسيمات الدروس التي تتضمنها، والتي هي أصغر وحدة يقسم إليها سيد موضوعات السورة، فيبدأ عند تفسيره للآيات بذكر الدروس التي تتضمنها الآيات التي هو في معرض بيانها كما أنه يعيد ذكر أبرز موضوعاتها بإيجاز في ختام تفسيرها، بل وبها يختم تفسير السورة بصورة مجملية، يقول في آخر سورة التوبة: ((وبعد فإن هذه السورة المحكمة تحتوي بيان الأحكام النهائية في العلاقات الدائمة بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات حوله - كما بينا في خلال عرضها وتقديمها - ومن ثم ينبغي أن يرجع إلى نصوصها الأخيرة بوصفها الكلمة الأخيرة في تلك العلاقات وأن يرجع إلى أحكامها؛ بوصفها الأحكام النهائية المطلقة، حسبما تدل عليها نصوص السورة))¹⁰⁸.

¹⁰⁷ التحرير والتتوير: (312 / 23)

¹⁰⁸ في ظلال القرآن: (3 / 1743)

وفي سورة الفرقان: ((وهو ختام يناسب موضوع السورة كلها ومساقها للتسرية عن رسول الله ﷺ وتعزيتة عما يلاقي من عناد قومه وجحودهم، وتطاولهم عليه، وهم يعرفون مقامه؛ ولكنهم في سبيل الإبقاء على باطلهم يعاندون ويصرون.. فما قومه؟ وما هذه البشرية كلها، لولا القلة المؤمنة التي تدعو الله وتتضرع إليه))¹⁰⁹.

بينما لا يلتفت ابن عاشور لذكر موضوعات السورة بعد أن ذكرها في أول السورة، ولكنه مع ذلك يذكر شيئاً كان قد ترك ذكره في جلّ السور وهو المناسبة بين الموضوعات ولكنه لا يذكرها لبيان موضوع الآية بقدر ما يتبع سابقه من المفسرين في ذكرها لبيان معنى الآية، وموافقة المعنى اللاحق للسابق إذا برز خفاء المعنى حائلاً للفهم، فيستعين بالمعنى العام الذي تظهره المناسبة، فيخبي المناسبة بين الموضوعات ليذكرها في موضعها عند تفسير الآيات، ومن ذلك قوله في بيان معنى قوله تعالى من سورة الفرقان: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝٥١﴾ [الفرقان: 51] حيث قال: ((والذي أختاره أن هذه الآية متصلة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ﴾ [الفرقان: 32] الآية، فبعد أن بين إبطال طعنهم فقال: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۚ﴾ [الفرقان: 32] انتقل إلى تنظير القرآن بالكتاب الذي أوتيته موسى عليه السلام ... ثم انتقل إلى استهزاء المشركين بالنبى ﷺ، وأشار إلى تخرج النبى ﷺ من إعراض قومه عن دعوته))¹¹⁰.

وقال في معرض تفسير قوله تعالى من سورة الشعراء: ﴿وَلَنُزِيلُ رَبِّ الْمَائِينَ ۝١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١١٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝١١٤﴾ لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۝١١٥﴾ [الشعراء: 192-195] مفسراً إياها إجمالاً: ((لتختتم السورة بإطناج التنويه بالقرآن كما ابتدئت بإجمال التنويه به، والتنبيه على أنه أعظم آية اختارها الله أن تكون معجزة أفضل المرسلين، فضمير (وإنه) عائد إلى معلوم من المقام بعد ذكر آيات الرسل الأولين، فبإوا العطف اتصلت الجملة بالجملة التي قبلها، وضمير القرآن اتصل غرضها بغرض صدر السورة))¹¹¹.

ويمكن القول بأن ابن عاشور قد بدا موضوعياً في اقتصاره على الذكر للموضوعات في مستهل السورة دون تكرار لها، في حين استرسل سيد قطب في تكراره للموضوعات، فهو يكرر غالباً ذكر الدروس المستفادة من كل مقطع من مقاطع الآيات، وهذه الدروس في حقيقتها هي أصغر وحدة موضوعية تناولتها مجموعة من الآيات.

¹⁰⁹ في ظلال القرآن: (5/ 2581)

¹¹⁰ التحرير والتنوير: (19/ 52)

¹¹¹ المصدر السابق: (19/ 188)

الخاتمة:

بعد أن تناول البحث تفصيلات الموضوع صار لازماً ذكر أهم نتائج الدراسة على وجه الإيجاز، ومن هذه النتائج:

1. موضوعات السور أحد موضوعات علم التفسير التي لم تُتناوَل على وجه منضبط في بداية التأسيس لعلم التفسير.

2. أول ما بدئ به في موضوعات السور هو الموضوعات المفصلية التي تبين المناسبة بين السور، ويظهر ذلك في كتاب (البرهان في تناسب سور القرآن) لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي (708 هـ)، ومن ثم ظهر كتاب (مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور) للبقاعي (885 هـ).

3. اختلاف شخصية المفسرين تظهر جلية في اختلاف منهجيتهما في التفسير، ومن ثم اختلاف تناولهما لموضوعات السور:

- أ. تميز أسلوبهما بذكر جميع موضوعات السورة الواحدة وهذه نقطة اشتراك بين المفسرين.
- ب. ظهرت ملامح الناقد في سرد قطب للموضوعات؛ فقسّم كل سورة إلى مقاطع تبدأ ببداية الموضوع، وتنتهي بنهايته، لذلك اختلفت المقاطع التي اعتمدها في بيان الموضوعات من حيث الطول والقصر، وفرّق بين الموضوع من حيث هو وحدة مستقلة، ومن حيث المحور الذي هو شخصية السورة وموضوعها الأساس. بينما يسرد الطاهر بن عاشور الموضوعات للسورة جميعها قلت أو كثرت إلا أنه لا يبحث عن مقصدها الأساس الذي تتكامل الموضوعات الفرعية لبيانها.
- ت. يكرر سيّد قطب غالباً ذكر الموضوعات إذا احتاج إلى ذلك في بيان معنى آية، أو مقطع من الآيات بعينها، كما يعيد ذكر موضوع السورة الأساس في ختامها غالباً، وبعض موضوعاتها كخاتمة مجملتها لتفسيرها، بينما لا يعيد ابن عاشور ذكر الموضوعات؛ لأنه لا يوظفها في بيان الآيات؛ وإنما يوظف المناسبة دون ذكر للموضوعات.

وفي ختام العمل نحمد الله سبحانه على توفيقه ونسأله السداد،

ونصلي ونسلم على سيّد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

المصادر والمراجع:

1. البخاري، البخاري، محمد بن إسماعيل، 1422هـ، صحيح البخاري "الصحيح المسند، تح: محمد الناصر (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط1، دار طوق النجاة.
2. البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط، 1987م، مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، المسمى "المقصد الأسمى في مطابقة كل سورة للمسمى"، مكتبة المعارف، الرياض.
3. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، 2003م، السنن الكبرى، تح: محمد عطا، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
4. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، 1980م، مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
5. حسين، عبد الباقي محمد حسين، 1986م، سيد قطب حياته وأدبه، ط1، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة.
6. الذبياني، زيد بن معاوية، 2004م، ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به: حمدو طماس، ط2، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
7. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، 1957م، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية.
8. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، 1998م، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل عبد الموجود وآخرين، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض.
9. السبت، خالد عثمان، قواعد التفسير جمعاً ودراسة، ط: بلا، دار ابن عفان، مصر، القاهرة.
10. السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث بن الأزدي، سنن أبي داود، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط: بلا، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
11. الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، 1997م، الموافقات في أصول الفقه، تح: أبو عبيدة مشهور آل سلمان، ط1، دار ابن عفان، القاهرة.
12. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي، المعجم الأوسط، تح: طارق بن عوض الله، وعد المحسن الحسيني، ط: بلا، دار الحرمين، القاهرة.
13. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الأملي، 2001م، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر، الرياض.
14. الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود، 1999م، مسند أبي داود الطيالسي، تح: محمد بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر، مصر.
15. ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور، 1984م، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس.

16. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن الأندلسي، 2007م، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبدالله الأنصاري وآخرين، ط2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر.
17. الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير النقي، 1990م، البرهان في تناسب سور القرآن، تح: محمد شعباني، دار النشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.
18. القاسمي، محمد جمال الدين، 1957م، محاسن التأويل، خرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.
19. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 1964م، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر.
20. قطب، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، 1412 هـ، في ظلال القرآن، ط17، دار الشروق، بيروت، القاهرة.
21. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، 1991م، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تح: محمد إبراهيم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
22. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي، 1999 م، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي سلامة، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.
23. مخلوف، محمد، 1985 م، تراجم المؤلفين التونسيين، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
24. مخلوف، محمد بن محمد بن عمر، 2004م، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق: عبد المجيد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
25. النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: بلا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.